

ماجد الحيدر
ضَحِكٌ... كالبُكاء
مقالات ساخرة
نُشِرت تباعاً في صحيفة الأهالي الليبرالية
مكتبة ماجد الحيدر
من اصدارات ملتقى الاهالي الثقافي العراقي

ضَحِكٌ كالبُكـــاء

مَقالاتٌ ساخرة

ماجد الحيدر

نشرت تباعاً في صحيفة الاهالي الليبرالية

- ضحكٌ كالبكـــــاء

مقالاتٌ ساخرة

- ماجد الحيدر
- من اصدارات ملتقى الاهالي الثقافي العراقي
- لوحة الغلاف: للفنان الراحل مؤيد نعمة
- الاخراج الفني: المهندس بسام احمد
- الطبعة الاولى–٢٠١٠
- رقم الايداع: ٢١١٤ في ٢٠١٠
- مطبعة جامعة دهوك

بكائيات ماجد الحيدر وضحك المساكين

رغم الاسلوب الرائع الذي يستخدمه ماجد الحيدر ومحاولته الجادة في رسم ابتسامة على شفاه القراء من خلال الأسلوب الساخر الذي يقدم بها تراجيدياته ، لكني لم أقرأ لماجد الحيدر الا وتنشط عندي الغدد التي تفرز الدموع..في اسلوبه الساخر الكوميدي الذي يطرح من خلاله الموضوع ... يضع الحيدر الأصبع على الجرح وهو بهذا الاسلوب الذي يقدم من خلاله تراجيديا الحياة العراقية والمأساة الانسانية للانسان الفرد في هذا الوطن البائس يضع كل الكتاب السياسيين أمام مأزق كبير ، وهو ما اسميه مأزق التسويق... كيف لنا نحن الكتاب السياسيين ان نسوق لبضاعتنا من الكلمات وهناك كاتب يكتب بكفاءة ومهنية الحيدر الذي يمزج بين الشعر والنثر ليقدم لنا في النهاية طبخة لذيذة من الكتابة الإبداعية ... بين ثنايا كلماته تتلألأ الجمل التي يكتبها بالعراقية الدارجة" بشرفك هذا وجه مال الحرامي" او كما فعل في كتابته الرائعة حول قيصر نوميه قائلاً في احد "درابين" الموضوع: " أسكت ولك أبو المستكي هسه صرت تستحرم؟! والله

لو صـار العرق ابلاش إتنه أول واحد تاخذه، لو ما تشربه تبيعــه، مثل ما قال المثل: عرق بلاش قاضي يشرب! "... وقول قيــصر نوميه كما نقله ماجد الحيدر بأمانة:" ولك أغبر همه هذوله مــال قانون مال حقوق إنسان، ولك هذوله يا قانون يكدر عليهم؟ أشــو نص اللي يخلّون القوانين ويطبقوها نهيبيه .. حاميها حراميه.. "

لا يمكن أن تقرأ لماجد الحيدر ولا تبكي ضحكاً ...ومن ثــم تستفيق لتدرك بعد حين بأن ما كنت تقرأه كان محض حزن شديد ينقله اليك الحيدر باسلوب ساخر ليخفف من وطأة ما انت فيه في هذا الوطن وان ضحكك كان محض بكاء ، فكلماتــه المــضحكة تجعلك تبكي بمرارة وتدرك بسرعة كبيرة أنك تعيش فــي وطــن غارق في البكاء ، غارق في الدماء، غارق في المظالم ، غــارق في جنون الساسة، وتعطش الطبقة الجديدة للثراء أكثر ... بالطبع لا هدف آخر لهم سوى السعي المجنون للخلود... وهنــا ينبغــي بالحيدر ماجد أن يكتب وبضحكة عالية عــن تطلعــات وأحــلام مجنونة لأناس نظنهم عقلاء ... !

إن الأسلوب السهل الممتنع الذي يتبناه الحيدر في الكتابة ، في نظري هو صعب ممتنع ، ومن الصعوبة بمكان أن يكون بمقدور أحدهم قيادة عربة كعربة ماجد الحيدر في هكذا أزقة ضيقة ، دون

أن يستخدم المنبه أو أن يحاول ابطاء سرعتها ، انـــه يـسير دون حوادث فنية أو لغوية أو بلاغية ، رغم المحاولة الهائلة والجهــد العظيم لتسطيح ما يمكن تسطيحه من أجل إيصال الفكـــرة لأكبـــر عدد من القراء، وتلك أيضاً تضحية أدبية ، لكنها عند ماجد لم تكن على حساب جودة الكتابة بل هو يتألق حتى في ذلك .

هفال زاخويي– بغداد

في ١٦ مايو ٢٠١٠



ليش ما صرت حرامي؟!

-"ليش ما صِرتْ حرامي؟!"

تساءل الولد مستنكراً متذمراً بعد أن رفضتُ للمرة العاشرة طلباً آخر من طلباته "المشروعة" الكثيرة متذرعاً بقلة ذات اليد، وناهراً إياه بالعبارة المكررة التي كنتُ أنهي بها محاججاتي:

-"من أين أجيء لكم بالمال... تريدوني أصير حرامي؟!"

-"وليش ما تصير حرامي، كان أحسن؟!"

لم أتوقع من صغير بهذا العمر أن يلفظ هذا الجملة التي أفحمتني تماماً وجعلتني أغرق في مستنقع التأملات. حقاً: ليش ما صرت حرامي؟

واستعذت من الشيطان الرجيم عندما ضبطت نفسي متلبساً بتهمة مراودة نفسي عن نفسي. لكنني لم أستطع أن أمنع "أمّارتي بالسوء" من الانجراف وراء الفكرة التي بدت معقولة، بل ومعقولة جداً إذا نظرنا الى ما يدور حولنا في هذا العالم الذي يكاد يصبح حكراً على "الحرامية" من مختلف الأشكال والألوان:

فالحرامية أناس محترمون، موقّرون، مهابون، يكثرون من الظهور على شاشات الفضائيات حيث يخاطبهم المذيعون بكلمات مثل "الأستاذ الفاضل" و"الضيف الكريم" و"معاليكم".

إنهم ينعمون بالأمان والثراء والحريم والقصور والخدم والحشم والحمايات. أما نحن فـ "إحنه ولاد كلب" كمـا يقـول المـواطن المسحوق على لسان عادل إمام!

الحرامية حكماء، عمليون، قادرون علـى التكيّـف والتلـوّن، يصبحون "الرفيق المناضل" عند الحاجة فيرتدون الزيتوني ويليـقُ عليهم والله كما لو أنهم نزلوا من أرحام أمهاتهم ببذلات الـسفاري التي تتدلى منها "مسدسات طارق" المطلية بالنيكـل، ويروحـون يتحدثون بلهجة أهلنا في المنطقة الغربية، ويلوكون ألسنتهم علـى طريقة "صگر البيده حفظه الله" فلا تسمع منهم غير "عَجِل يا به" و "يا ولّو" حتى تحسبهم من أبناء عمومته الألـداء.. ثـم تـراهم يصبحون "سماحة الشيخ" عند الحاجة فإذا بـك تكتـشف البقعـة الباذنجانية الداكنة على الجبين وتبصر الخاتم الفضي العملاق في الخنصر الأيمن، وإذا بك تلاحظ أنه يخاطبك بكلمة "مولانا" بلكنة لا تجعلك تشك لحظةً واحدة بأنه تربى منذ نعومة أظفـاره فـّي مساجد "قم المقدسة"... ثم تراه ينقلب في طرفةِ عـينٍ الـى "الأخ المجاهد" بـ "دشداشته" القصيرة أو "تراكسوته" الأسـود وقانفـة "الآر بي جي" العتيدة، أو تراه بلحيته نـصف الحليقـة المعطـرة وربطة عنقه ذات العقدة الكبيرة جالساً في مقعده الدوار الوثير في غرفته الفخمة التي كتب على بابها "تمنع مقابلات الـسيد المـدير العام إلا بموعد مسبق".

نعم. الحرامية أناسٌ ناجحون في الحب والسياسة والرياضة والفن و"الطاولي" و"البوكر" والمقاولات وعالم المال والأعمال.

الحرامية محصنون، فهم -وعلى عكس المتوقع- لا يطالهم القانون الذي يطال أمثالنا من مدعي النزاهة والاستقامة والالتزام.

الحرامية متفائلون، مقبلون على الحياة، فكِهون، يتمتعون بحسٍّ الدعابة، وليس في قواميسهم كلمات مثل اليأس أو الإحباط أو المستحيل.

والحرامية يذهبون مذهب عمهم السابق القائل بأن "كل العراقيين بعثيون وإن لم ينتموا" ويعتقدون جازمين أن كل الناس حرامية وإن لم يسرقوا بعد، وإنها ليست سوى مسألة ظروف أو حظوظ أو مواهب أو افتقار الى الجسارة والإقدام، ولهذا تراهم يدخلون تحويراً بسيطاً على بيت المتنبي الذي يتحدث عن شيمة الظلم لكي يُقرأ بالشكل المبتكر الطريف:

واللطشُ من شيَمِ النفوسِ فإن تَجِد ذا ذِمَّةٍ .. فَلِعِلَّةٍ لا يلطشُ

نعم، والحرامية محللون سياسيون من الطراز الأول؛ فهم "يتنبئون" بالقرارات الحكومية قبل أن يوضع عليها الرقم والتاريخ.

والحرامية فطنون، ألمعيون؛ يمتلكون معدلات ذكاء أعلى بكثير مما نملكه نحن المواطنين العاديين، ويتمتعون بعشرة حواس إضافية فوق الحواس الخمسة أو الستة التي يفخر بها من كان ذا حسٍ منّا؛ فهم يشمون رائحة النقود ولو كانت في صندوق داخل

صندوق داخل صندوق، وهم يشعرون باهتزازات الدولار وتقلبات السوق بأحسن مما يشعر به مقياس "ريختر" أو مؤشر "نيكـــاي"، وهم يقدِّرون بنظرة واحدة الى "الموظف المسؤول" الـــثمنَ الـــذي ينبغي دفعه اليه "إكراميةً، لا رشوةً والعياذ بالله" لتمشية صفقاتهم، وقد حباهم الله بقدرة خارقة علـــى توقـــع نتـــائج الانتخابـــات أو التحولات السياسية سواء أكانت "ديمقراطية شفافة" أو "انقلابويـــة عسكريتارية" أو "وراثية ثورية" فيميلون الى الجانب الـــرابح دون أن يديروا وجوههم عن الخاسر الذي قد يتوقعون عودتـــه. وهـــم قادرون على تحريك الأشياء من مكانها من بعيد، لـــيس بـــسبب قدرات باراسايكولوجية أو طاقة كهرومغناطيـــسية مزعومـــة بـــل بمكالمات هاتفية يمكنها أن تنقل جيوشاً أو أســـاطيل أو نـــاقلات طائرات أو جنود أو عربات تجرها الحمير (كل حـــسب قدرتـــه وتمكنه من فنه) وهم .. وهم.. ولماذا أصدع رؤوســـكم بتعـــداد قدراتهم الخارقة؟ فهم –أو أكثرهم– مكشوفون معروفـــون لـــدى القاصي والداني.

غير أنني –وأعوذ بالله من كلمة إنني– لا بد أن أنبّه الى فارق جوهري بين صفة "الحرامي" وصفة "اللص" وهو الفرق الذي قـــد لا يتبينه بعض القراء الكرام؛ فكلمة "اللـــص" أو رديفتهـــا كلمـــة "السارق" وكلمة "دز" التي تقابلها في الكرديـــة أو كلمـــة "thief" المستعملة في بلاد الحاج بوش، وبعيداً عن التعريفـــات القانونيـــة

التي لا أفقه فيها كثيراً، قد تشير الى من يقتحم البيوت أو الجيوب أو الخزائن ليأخذ منها ما ليس له، وجريمة صاحبها تتراوح بين سطو مسلح على مصرف كبير لحمل الغالي والنفيس على طريقة السيد "شين كونري" أو الإغارة على قوافل الأغنياء والأمراء على طريقة "روبن هود" أو "عروة بن الورد" ورفاقه الصعاليك، وسرقة حفنة من الطحين أو رغيف خبز على طريقة خالد الذكر "جان فالجان" بطل "بؤساء" فكتور هيغو.. ومعلوم لدى القارئ أن بين من ذكرتُ آنفاً أناسا لا يمكن أن ترتاح النفس الى إطلاق لقب الحرامي المخزي عليهم.. بل إن بعضاً منهم صاروا أبطالاً تحتفي بهم الذاكرة الشعبية ومنهم اللص الشريف الذي رسم صورته "أبو ذر الغفاري" حين قال: عجبتُ لمن لا يجد في بيته قوت عياله كيف لا يخرج الى الناس شاهراً سيفه!

أما الحرامي فهو شخص من طينةٍ أخرى؛ فقد لا يقتحم بيتاً أو مصرفاً أو ينقب جداراً أو يفتح خزانة، لكنه حرامي ابن سطعش حرامي حين يتلاعب بأقوات الخلق وأرزاقهم ويستغل نفوذه أو منصبه أو سطوته ليعب في جيوبه وأرصدته ما شاء من السحت الحرام الذي يستطيع بقليل من المهارة والذكاء أن يضفي عليه ما شاء من "مخارج" دينية أو أخلاقية أو قانونية.

**

كنت غارقاً في هذه التأملات "التحريفية الرجعية" عندما وقع نظري على صورة وجهي في المرآة، فتوقفت قليلاً كي أتأمله ثم رحتُ أسألُ نفسي: بشرفك هذا وجه مال حرامي؟!

وعدت لأستعرض "المواهب والخصال الفريدة" التي ينبغي أن يتمتع بها من يريد الحصول على هذا اللقب المـشرِّف فوجدتني خالي الوفاض منها، فلجأتُ الى حيلةٍ قديمة أخرى إذ حلمتُ بأنني صرتُ في موضع المرحوم "علي بابا"، وأنني اكتشفت "خارطة الطريق" الى مغارة علي بابا، وعرفت كلمة السر عن طريق الانترنت، واستغليتُ فرصة منع التجوال الليلي، فقدتُ عشراً من الحمير الحساوية الى حيث المغارة الموعودة. غير أن نشوة الحلم اللذيذ سرعان ما تبخرت من رأسي حين استعرضت "بمنتهى الشفافية والوضوح" السيناريوهات المحتملة لقصة "أنا بابا والأربعين حرامي" وإليكم بعضاً منها لكي تكون عبرةً للأجيال الواعدة في عراقنا الجديد:

أولاً: في منتصف الطريق أكتشف بأن الخارطة ليست معي فأتفقد ثيابي وحميري بحثاً عنها دون جدوى فأعود سالكا نفس الطريق مبسمراً عيني على الأرض علني أعثر عليها، ثم أتذكر بأنني تركتها مع الجرائد والمجلات القديمة المكومة فوق سريري فأعود مهرولاً الى البيت لتخبرني جاريتي "كهرمانه" بكل صلف ووقاحة بأنها "نبَّت" جميع أوراقي "المكطنّة" في الزبالة لغرض

تنظيف البيت استعدادا لشراء "طقم القنفات" المذهّب الجديد وغرفة النوم "أم ست بوب" التي وعدتها بهما حال عودتي ظافراً بـــالكنز. وأركض الى كومة الأزبال التي ترقد في أمان في "راس الدربونة" منذ ثلاث سنوات فأجد (ويا للعجب) أن البلدية قد تذكرت منطقتنا (بسبب اقتراب الانتخابات) وأرسلت الينا سيارة نقل الأزبال منـــذ الصباح الباكر، فأركض كالمجنون نحو القـسم البلـــدي القريـــب ليخبرني "سيد وهاب" نائب رئيس المجلـــس البلـــدي أن الـــسيارة بحمولتها ومن فيها من عمال مساكين قد تحولت الى أشلاء ودخان بفعل عبوة ناسفة وضعها واحد من "الشرفاء أولاد الـــ...".

ثانياً: أصل الى باب المغارة سالماً غانمـــاً ومعـــي الخارطـــة العزيزة، وسوف أقضي الطريق بطوله مترنماً بما حفظتـــه منـــذ صباي من أغاني "داخل حسن وحضيري أبـــو عزيـــز" وعنـــدما أترجل عن حماري المقدام أمام المغارة تختلط علي كلمـــة الـــسر وتشتبك مع كلمات الأغاني فأحاول –وأنـــا النـــسّاء العظـــيم- أن أتذكرها دون جدوى حتى يحل المساء ويعود اللصوص ليجدوني واقفاً فاتحا فمي كالأبله فيسلمونني الى أصدقائهم الأمريكان ومنـــه الى سجن "بوكا" وهناك أفقد عقلي وذاكرتي الى الأبد.

ثالثاً: بعد أن أصل الى المغارة وأفتح بابها وأتأمـــل كنوزهـــا أغرق مع نفسي في "مونولوج داخلي" حول مشروعية العمل الذي سأقدم عليه، وهل من الجائز أو المبرر أخلاقياً أن تـــسرق مـــن

سارق أم إنك والسارق الأول تخضعان للحكم الأخلاقي ذاته ناهيك عن مسألة كون بعض هذه المقتنيات من الآثار التي تمثل "تاريخنا المجيد الحافل بالانتصارات والإنجازات" ومن العيب "كلِّش" استغلالها لأغراض أنانية فردية. وعندما أعجز عن الوصول الى نتيجة حاسمة أريح بها ضميري أغادر المغارة مع حميري خالي الوفاض مقررا تأجيل الموضوع لحين التوصل الى نتيجة مرضية للطرفين: أنا وضميري.

رابعاً: وهو سيناريو محتمل لا أخجل من ذكره: ينتابني الخوف في منتصف الطريق وأروح أستعرض ما قد يلحقه بي اللصوص إذا قبضوا علي في المغارة أو عرفوا مكاني بعد السطو على كنوزهم وخصوصاً مع قلة الموجود في السوق من زيت يمكن أن تصبه كهرمانة على رؤوس اللصوص الذين سيتسللون الى بيتي داخل الجرار الكبيرة كما تفترض الحكاية، فألملم أذيالي وأسلم سيقاني للريح.

خامساً: انكشاف أمري ووصول خبر ثروتي الكبيرة الى السادة "العلاّسة" المحترمين، وعندها ستضيع الثروة المذكورة زائداً رأسي العزيز.

سادساً: بما أني من الأشخاص الحالمين الرومانسيين البطرانين على ربهم فمن المحتمل جداً أن أقضي النهار بطوله داخل المغارة متأملاً جمال التحف الثمينة ومحاولاً تقدير أعمارها والمدرسة

الفنية التي ينتمي اليها مبدعوها وحائراً في اختيار أكثرها جمالاً - بغض النظر عن قيمتها المالية- أم أكثرها قيمة في السوق -بغض النظر عن قيمتها الفنية- ولا أشعر بنفسي إلا والأربعون حرامـــي على رأسي فيضحكون مثل "محمود المليجي" ثم يشرعون بتقطيعي الى مكعبات صغيرة.

وهكذا توصلتُ في النهاية الى نتيجة مفادها أنني لا أصلح لهذه المهنة المريحة المربحة المحترمة: مهنة الحرامي، وأنني ســأظل طوال ما تبقى من العمر مواطناً فاشلاً لا يملك غير أن ينتظر آخر الشهر ليقبض ما يقرره "سلم الرواتب" من دنانير يرقّع بها ثــوب عيشه المتخرق..

وطوبى لكم أيها الحرامية.. يا سادة العصر وكل عصر.. أمــا أنتم أيها الشرفاء، أعني الفاشلين العاجزين المولولين، فاذهبوا الى الجحيم، نعم الى الجحيم تحديداً، فالحرامية قد سبقوكم الى ملكوت الرب!

عن حي .. المتنبي، ولينين وستالين والمادة ١٤٠

رأيت جاري يضحك ويهز رأسه ويضرب كفاً بكف فسألته عن الخبر فقال:

-كنا في قفص الأسر بإيران خليطاً متنوعاً من البشر؛ بين جاهل ومتعلم، بين مهندس معماري وكاسب كار، بين مقاول متريش وفلسان أباً عن سابع جد، لا يساوي بيننا غير كوننا ضيوف أعزاء مكرمين معززين على "جمهوري إسلامي" حتى أنهم من كثرة إكرامهم لنا كانوا يمنعوننا من العودة الى أهلنا إلا بعد عشرة أعوام على أقل تقدير!

وكان، لطول اختلاط بعضنا ببعض، أن صرنا مثل أسرةٍ واحدة يعرف كل منا أحزان أخيه و"أفراحه" و"آماله" وعيوبه وحسناته وتحولاته وألقابه وخبالاته.

وكان بين من كان رجل ظريف من أهل الحورانية (ولا تسألني أين تقع) في منتصف العقد الخامس من عمره نناديه أحيانا بـ"سيد عوده" وأحيانا "أبو الهوية" وأحياناً "سيد تجديد" وأحيانا "أبو الصورة" وأحيانا "الفهيمه". ولهذا قصة مضحكة سأقصها عليك:

كان "سيد عوده" كاسباً بسيطاً "لا بيها ولا عليها" يمشي في طريقه لا يلتفت يميناً أو يساراً. لكن حظه العاثر ساقه ذات يوم

الى الوقوع بأيدي مفرزة للجيش الشعبي نصبت له فخاً قرب دائرة الأحوال المدنية.

–وماذا كنت تفعل عند دائرة الأحوال المدنية يا سيد عودة؟

كنا نسأله المرة تلو المرة ونحن أدرى بالجواب. لكنه في كل مرة يقوم "عله حيله" إذا كان جالساً، أو "يتربع" على الأرض إذا كان واقفاً ويسترسل في شرح الواقعة ونحن نغصُّ بالضحك:

–مرتي (الله يصخم وجهها) گالت لي صورتك بالهوية ما حلوة، عتيگة وتعبانة، وفوگاها لابس بيها عگال ولا چنك مخلص خامس ابتدائي!

–وهل سمعت كلامها؟

–في البداية عاندتها وضحكت على عقلها الصغير لكنها ظلت تلح علي وكأن الدنيا ستنقلب إذا لم أجددها، وتحاول كل يوم إقناعي بمراجعة دائرة الأحوال المدنية "عند ابن خالتها مفوض الجنسية" لغرض تجديد الهوية "هيّه صورتين بالجاكيت والرباط وطلب تجديد تنطيها لابن خالتي وهو يتكفل بالباقي".

–واستسلمت لها في الأخير؟

–طبعاً .. حكم النسوان ولازم نطيعه. وبعدين يا خويه ابصراحه شفتهه شغله معقوله، صورة جديدة وجاكيت جديد وهوية جديدة ومجرد طلب تجديد ودينارين طوابع وأبوك الله يرحمه! وما أضم عليك گلت ويه نفسي هلبت أجملها وآخذلي مرة جديدة وأرتاح من نگنكات الحجية!

وبعدين؟

هيّه ظل بيها بعدين. ورروح جدي بعدني دا أنفخ على الصورة حتى تيبس ولَنّ الرفاق موگفيني على باب الأحوال "هويتك أخي" و "إصعد أخي" "ما أصعد" إصعد ولك ابن الـــ..." وشالوني وشمروني بالـــ"هينو" ... وما أشوف نفسي غير بالشلامـــچة و "إنزل رفيقي" و "انبطح رفيقي" وما أشوف غير " البسيج وباسدران" فوگ راسي و "دخيل العباس لا تضرب" و بوكس علـــى حلگـــي وشـــمروني بالجيب ولَنّي بالقفص مگابل وجوهكم الگشرة!

سكت جاري وهز رأسه ضاحكا وهو يسترجع تلك الـــذكريات فسألته:

-وما قصة لقب "الفهيمة"؟

-هذه قصتها قصة أخرى. فقد تفتقت أذهان بعض الخبثاء منـــا ذات يوم على أن نلعب عليه ونوهمه بأنه رجل عظيم ولا يلحقـــه أحد في العلم والذكاء. فافتعلنا خلافاً حول مسألة جغرافية ورفعنـــا صوتنا كي نُسمعه آراءنا وأخيراً صاح واحد منا "هاي ميحلها غير سيّد عوده" ونهضنا نحوه فتشاغل عنا وكأنه لم يسمع وخاطبناه وقد رسمنا على وجوهنا ملامح الجدية والتفكير:

سيد رحمة على جدك صار بيناتنا اختلاف على فد حسبة وگلنه ميحد يعرف يجاوب عليهه غير سيد عودة على اعتبار إنته قـــوي بالجغرافية.

-گول إبن أخوي.

-سيد يا هو الأكبر بالمساحة زمبابوي لو فنزويلا؟

-هاي ما كو أبسط منها: طبعاً مندويلا أكبر من زنبابوي!

-شلون سيد رحمة على جدك؟

-وليدي لا تسألني شلون مالون. هاي المسائل حافظها عالغيب!

-والله يا سيد إنته حرامات تموت. والله يا سيد لو أكو فهيمه بالمعسكر هو إنته.

ومن يومها أضيف لقب الفهيمة الى ألقابه. والعجيب إنه صدق المسألة وكأنها تحصيل حاصل وصار "يشيل خشمه" علينا ويستعمل كلمات مثل "بالحقيقة والواقع" و"بصراحة" و "أنا أعتقد" حتى انقلب سحرنا علينا وصرنا لا نفتح فمنا بشيء إلا علق عليه وصحح معلوماتنا. في إحدى المناسبات كنا نتحدث عن الحرب العالمية الثانية ومعاركها وقادتها فانبرى الفهيمة ليشرح لنا:

-هو كل الصوج من ستالين. لو ما كتب بوصيته من أموت خلوا لينين يصير رئيس وزراء مال الإتحاد السوفيتي جان خروشوف ما احتل العلمين وخله مومغمري يسقّط بكر صدقي!

ثم قهقه جاري من جديد فسألته عن السبب فأجاب:

-المصيبة أن بعض البسطاء صدقوا الأمر أيضا وصاروا من أتباع سيد عوده، لا يرجعون في كل كبيرة وصغيرة إلا إليه. في إحدى المرات كنت جالساً مع زميل لي يهتم مثلي بالشعر والأدب وكان ثالثنا واحداً من هؤلاء السذج الغافلين. وحدث أنّ زميلي

أراد الاستشهاد ببيت من الشعر فقال "وكما قال المتنبي رحمه الله".
عندها خرج صاحبنا من صمته وقال مستنكراً:

-استغفر الله عمّي! كيف تقول عن المتنبي رحمه الله وهو حي وعدل؟

-ولكن المتنبي مات قبل ألف سنة!

-يمعود صلي على نبيك إنتو شلون خريجين! دقيقة، خلّي نسأل السيد (واستدار الى سيد عودة) سيد بروح جدك المتنبي مو حي؟

-طبعاً حي (أجاب أبو الصورة من فوره وهو يقسوم ويتجه نحونا)

-وكيف هذا يا فهيمتنا؟ سأله صاحبي مغتاضاً.

-إنته رايح للكوفة؟ (سأل السيد وهو يتربع قبالتنا)

-طبعاً رايح.

-شايف الجسر الوسطاني؟

-نعم. اشبيه؟

-أول ما تعبر الجسر تلگي قطعة زرگة مرتين ابگد هاي الباب مكتوب عليها "حي المتنبي". إي قابل اللي كتبوها ما يفتهمون وجنابك تفتهم؟!

عند هذه اللحظة لم أتمالك أنا الآخر نفسي من الضحك بصوت عال أثار انتباه الجالسين في المقهى.

-ولكن ما "ربّاط الحكاية" ولماذا كنت تضحك وتضرب كفا بكف ومن ذكّرك بصاحبك القديم ذاك؟

-والله لا أعرف أأضحك أم أبكي. قبل أن تدخل المقهى بدقائق رأيت المذيع في قناة "الحظيرة" الفضائية يقول:

-ولغرض تسليط المزيد من الأضواء على الموضوع يحدثنا من بغداد الأستاذ "عواد الفاهم" المحلل السياسي والأمين العام لحزب "التجديد".. أستاذ عواد هل يمكن أن تضعنا في "صورة" ما يجري في العراق وبالأخص ما يدور من جدل حول مفهوم الفدرالية؟ (ورأيت سيد عودة بلحمة وشحمه يملأ الشاشة وهو يعدل ربطة عنقه ويتنحنح ويجيب)

-أي نعم، الصورة .. طبعاً بصراحة وبالحقيقة والواقع الصورة غير واضحة لأنه كما تعرفون كلش زين حزبنا يرفض الفدرالية رفضاً قاطعً لأنه كما تعرفون كلمة الفدرالية موخوذة من "فَـد" و "رالي" وهذه مو زينة لأن المفروض مو فد رالي واحد لكن راليين أو ثلاثة أو أربع راليات على الأقل حتى الشغلة تصير ديمقراطية حقيقية صحيحية تحافظ على "هوية" بلادنا وكما قال المتنبي:

إنَّ العراقَ لَخَوشٌ شرط ميصير فدرالي!!

عن جندرمة الوالي العثماني والعجوز العراقية وحزب العمال الكردستاني!

من الحكايات التي يرويها بعض شيوخنا عن زمن الاحتلال "العصمللي" الذي ولّى الى مزبلة التاريخ- رغم أن بعض "القَومَهچِيّين" الطورانيين ما زالوا يمنّون الأنفس بعودته... أقول إني سمعت من بعض شيوخنا هذه الحكاية المضحكة/المبكية التي سأرويها لكم بدوري عن طيب خاطر:

يُقال أن شرذمةً من جند الوالي "العصمللي" حلوا ضيوفاً ثقالاً على إحدى القرى العراقية المسالمة. لم تكن الاستضافة والزيارة غرضهم بالطبع، رغم أن العراقي الشهم لا يقصّر أبداً في واجب الضيافة حتى مع ألدّ أعدائه، لكنهم نزلوا على أهل القرية الفقراء كالقضاء المستعجل ليجمعوا ضريبة الغلال السنوية.. تلك الضريبة القاسية الظالمة التي كانت تمتص دم أهل السواد وأهل كل بلاد ابتليت بـ "الرعوية" العثمانية العليّة.. والتي كانت تصب في خزائن "خليفة الإسلام والمسلمين أعزه الله ورفعَ لواءه وأذلّ أعداءه" في "الأستانة المحروسة بالدعاء والتأييد من الباري المجيد" بعد أن تمرّ على العشرات من الوكلاء والمتعهدين والمدراء والقائم مقامين والخَزنَداريين والدفتَرداريين والقومسيونجية والزابطية

والصندوق–أمينـين والـولاة والـوزراء والحُجّـاب والغلمـان والنسوان... ليأخَذ كلٌ منهم بنصيب.. والله يرزقكم من حيـث لا تعلمون!!

كانت القريةُ خاليةً إلا من بعض العجائز والصغار؛ فقد خـرج الرجال والنساء والشباب القادرون على العمل الى إحدى القـرى المجاورة لمشاركةِ أهلها في طارئ ألمّ بهم أو في فرحةٍ يعـدّون لها– النقطة الأخيرة لم يوضحها الرواة على وجه التأكيـد رغـم يقيني ويقينهم أن أهل هذه القرية لم يسألوا أو يتـساءلوا قبـل أن يخرجوا في تلك "الفزعة" العراقية إن كان أهل القرية الأخرى من "إخواننا العرب السنّة" أو من "إخواننا العـرب الـشيعة" أو "مـن إخواننا الكرد" أو "من إخواننا الكلدو–آشوريين" ...الخ كما اعتـاد أهل الحل والربط المُحدَثون أن يشنّفوا أسماعنا هذه الأيام!

لم يكلِّف أفراد دورية الجبايةِ أنفسهم عناء النزولِ من صهواتِ جيادهم.. واكتفوا بأن "كرعوا" على عجل "طاسات" اللبن الرائـب التي خرجت لهم من الأكواخ الفقيرة ومسحوا شواربهم الغلاظ، ثم شرعوا في "العمل" فداروا حول ساحة القرية وهم يلوحون بسيوفهم القفقاسية و"كرابيجهم" الشركسية.. وصاحوا شـاتمين متوعـدين مطالبين بالإتاوة السنوية..

وتقدّمت منهم في خطىً ثابتةٍ قوية رغم كرّ السنين كبيرة القريةِ وحكيمتها (أم الشيخ الزعيم وزوجة الشيخ الراحل القديم) ولم تزد على أن سألتهم بوقار، أو قل باحتقار:

-"كم؟!"

-"عشرون ليرة" قال وكيل الخزندار العجوز وهو يُخرج الكلمات من منخريه وينظر في الدفتر السميك البالي.

-"عشرون ليرة ذهبية لا تنقص قرشاً" أضاف ضابط الدورية بصوته الجهوري "ولا تزيدوا أو تعيدوا في المماطلة والكلام كشأنكم في كل عام .. وإلا فبشرفي وبشرف حزرة جناب والي موعزّم ...."

لم تنتظر العجوز حتى يفرغ الضابط من وعيده بل استدارت ودخلت كوخها ثم خرجت بعد قليل وهي تحمل الكيس الأسمر الصغير وناولته الى إحدى حفيداتها وأشارت بطرف رأسها الى الوكيل–المرابي فمضت الصغيرة إليه..

-"مَزبوط حَزرَة وكيل؟" سأل ضابط الدورية.

-"مزبوط حزرة زابط!" أجاب الوكيل ذو الأنف الكبير بعد أن عد الليرات وأعادها الى الكيس. ثم رفع طربوشه الأحمر ومسح صلعته بمنديل كان قد اختطفه قبل يومين من قريةٍ مجاورة وأخذ يحدق في العجوز بذهول شاركه فيه الجندرمة أجمعين.. نعم فقد كانت هذه أول مرة يقبضون فيها أموال الجباية بهذه السهولة ومن

دون ركل أو شتم أو بصاق أو "كرابيج".. وأخيراً أداروا أكفال خيولهم السمينة المدللة الى أكواخ القرية دون أن ينسوا حمل خروفين وبضع دجاجات.. "حق الغدة" كما يقول بعض أحفادهم في زماننا.. بينما راح ديكٌ مفزوع خسر عدداً من محظياته المقرقرات وأفلت بالكاد من المصادرة يتقافز في حنق ويضرب جناحيه في نزق ويصيح كما لو أنه يُشهد الزمان على هذا الظلم والهوان!

عندما كانت الشمس تميل الى المغيب عاد أهل القرية الى بيوتهم، فدبّت الحياة فيها من جديد وارتفع دخان التنانير وضجيج الصغار ونباح الكلاب ودقات الهاون في مضيف الشيخ.. الشيخ الذي ما أن قصت له زوجته خبر الزيارة المشؤومة حتى هرع الى أمه العجوز يسألها عن حقيقة الأمر.

–لا شيء يا ولدي ... جاء الجندرمة وطالبوا بالجزية فأعطيتها إياهم.

–هكذا بكل بساطة؟

–هكذا بكل بساطة!

–عجيبٌ أمرك أيتها العجوز، يطلبون فتعطين؟ ألا تعرفين أننا لم نعتد أن نسلمهم الضريبة إلا بعد أن يشبعونا ركلاً وضربا بالكرابيج؟

-بل عجيبٌ أمرك وأمر رجال القريـــة. إذا كنــتم ســتعطون الجزية في الأخير فلماذا تعرّضون نفسكم للــضرب والإهانـــات، وبدلاً من "الجزّة" تخسرون "الجزّة والخروف"!؟

-هكذا اعتدنا يا أماه من زمن أبي وجدي.

-إسمع يا ولدي من أمك العجوز وضعها "ترجية" في آذانك: ما دمتم لا تستطيعون دفعهم فادفعوا لهم وإلا فكونوا رجالاً بحقّ!

لا أدري أن كانت حكيمة القرية قد قالت هذا الكلام بنصه غير أني أميل الى أن أجعل جملتها الأخيرة من الأمثال السائرة في بلاد السواد سواء كانت على خطأ أم على صواب.

....

ولا أدري لماذا تذكرت هذه الحكاية القديمة وأنا أسمع حـــديث الوعيد التركي بغزو كردستان العراق بذريعة ملاحقة حزب العمال الكردستاني، ولكنني على يقين أن جندرمة الولاة الجــدد الــذين سينزلون على قرانا حاملين فرمان البرلمان التركي لن يجدوا هذه المرة من يقدم لهم اللبن أو الخراف أو الدجاج ناهيك عن الجزيـــة التي يحلمون بفرضها علينا... فقد تعلمنا من حكمة المرأة العجوز أن لا نخاف كرباجاً أو "زابطية" أو مدفعية ثقيلة... لكن المــشكلة فيهم... فهل يتعلمون!؟

عن العراقي الشريف والشيعي الشريف والسني الشريف والعربي الشريف والكردي الشريف وتعريف كلٍ منهم

هل الحديث مع المتخلفين والجهلة والمتعصبين ضربٌ من إضاعة الوقت؟ ربما كان الأمر كذلك، وربما ليس كذلك. فمجالسة الحمقى بلاء كبير، وقديما قال أحد عقلاء العرب: إني لأجالس الأحمق ساعةً فأقوم فإذا بي شيءٌ من حمقه!

والمتعصبون بالتحديد يتبوأون المقعد الأعلى في سلم الحمقى. والمشكلة مع هؤلاء إنهم ينفون عن أنفسهم صفات الجهل والتخلف والتعصب ويعتقدون جازمين أنهم أذكياء بل وحكماء ومتسامحون! وأنهم بتنازلهم للحديث معك يمنّون عليك بعلمهم الذي لا تحده حدود أو نجود، ولا "يفكّون منك ياخه" حتى يهدونك الى الحقيقة العظيمة التي لا يملكها بالطبع سواهم، وهذا وحده محنة لا يعلمها إلا الله:

وإن عناءً أن تفهّمَ جاهلاً

ويحسبُ -جهلاً- أنهُ منكَ أفهمُ!

وأكثر المتعصبين هم من "المستَجِدّين" في مجال "اختصاصهم" كأن يكون خليعاً متهتكاً تائباً أو متحولاً من مذهب الى مـــذهب أو ممن قرأ بالصدفة كتيباً أو اثنين من كتب "العربانـــات" الــصفراء فصار يعتقد أنه امتلك مفاتيح علم القدماء والمحدثين!

لكل جديدٍ لذَةٌ غيرَ أنني

رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذِ

الكثير من هؤلاء يتغلبون على جمـــودهم وتعــصبهم عنـــدما يزدادون معرفة وتتلاقح أفكارهم بأفكار غيـــرهم، فيقللـــون مـــن تعصبهم ويكتسبون صفات التواضع والتسامح والاعتراف بقيمـــة الغير/ المختلف عنهم. غير أن البعض الآخر مـــنهم لا تكـــسبهم الأيام إلا غلوّاً وتحصباً حتى لتحسب أن أدمغتهم قد أصابها نـــوعٌ من التكلس الذي لا تنفع معه "قاشطة" أو "سيم مواعين" أو "محلول لتنظيف الحمامات!" وعندها يصح عليهم قول صـــالح بـــن عبـــد القدوس الذي كان سبب قتله على يد الخليفة المهدي-وقانا الله شر أشباهه:

والشيخُ لا يتركُ أخلاقَهُ

حتى يُوارى في ثَرى رمسهِ

إن الدخول في نقاش مع واحد من هؤلاء قد يكون أمراً محفوفاً بالمخاطر – وخصوصاً في "عراقنا الجديد السعيد" الذي صار فيه السيف و"الدريل" وكاتم الصوت من وسائل الإقناع التي لها الكلمة العليا! خصوصاً إذا علمت أن من صفاتهم التوتر وسرعة الغضب لدى سماع رأي مخالف.

ومن صفاتهم أيضاً أن أحاديثهم "التاريخيـــة" تزخـــر بألفـــاظٍ وصفات مطلقة جازمة لا محل فيها للخطأ من أمثال: أبداً، نهائياً، قط، مستحيل، دون شك، الحقيقة، بالتأكيد، إطلاقاً، دائماً، بالحرف الواحد، أعظم، أحقر، دون استثناء، من البديهي، جميـــع، كـــل، قاطبة...الخ. ولكنك قلما تعثر على كلمات مثل: أعتقد، أظن، في الغالب، قد، ربما، من المحتمل، من الممكن، أتفق معك، نـــسبياً، جزئياً، الى حدٍ ما... الخ.

ثم إن "الواحد" من هؤلاء "المستجّدين" يعد نفسه الممثل الوحيد والناطق الرسمي للمذهب أو الدين أو الاتجاه السياسي الذي يدافع عنه. و"من البديهي" أنه يعد أتباع الأديان والمذاهب و القوميـــات والأفكار الأخرى أناساً مخطئين خاطئين يستحقون العقاب، ذلـــك العقاب الذي يتراوح بين المقاطعة وقطع الأرزاق وقطع الرؤوس والأعناق والهجر والتهجير والعزل والاعتزال والشتم العلنـــي أو السري أو –عند من يعد نفسه أكثر رفقاً ورحمة– شكر البـــاري وحمده لأنه ليس منهم ودعوته –أي الباري الذي يوقن بأنـــه فـــي

صفه دائماً– الى هدايتهم وضمهم الى "فرقته الناجية" العتيدة. أما إذا كان المخالف لرأيه من أتباع ملته أو قوميته أو اتجاهه السياسي فلا بد أن يرمى بالخيانة أو الردة أو الكفر أو الجبن، ومن هذا ما نسمعه كثيراً من أفواه بعضهم من أنه "ما كو عراقي شريف يفعل هذا" و "ماكو شيعي شريف يقول هذا" و "ماكو سني شريف يرضى بهذا" و"ماكو عربي شريف يسكت عن هذا" و "هيچ كورده كي شه ريف بڤيَ چه ندي رازي نا بيَت" الخ .. وفي هذا –كما لا يخفى– نوع من آلية الحماية الذاتية التي تلجأ اليها النفوس المصابة بداء التعصب والتحجر الفكري. وعندما يصل الحديث مع هؤلاء الى مرحلة كهذه سيكون على المحاور المسكين أن يرضى بحل من اثنين: أن يعلن استسلامه غير المشروط لآراء العلاّمة النحرير، أو أن يعترف بأنه "مو شريف"!

قلت إن الحديث مع هؤلاء ربما يكون ضرباً من إضاعة الوقت. لكنه في الغالب ليس كذلك؛ فالامتناع عن محادثة من تعتقد بتخلفه عنك في العلم أو المعرفة شبيه بامتناع الطبيب عن التعامل مع المريض بحجة أنه مريض! ثم أن الأمر لا يخلو في كل الأحوال من فائدة بغض النظر عن المحصلة النهائية للنقاش، إذ ستتعلم على الأقل أن تخفف من "حماوتك" وستعرف أن هناك من يخالفك أو يتقاطع معك في وجهات النظر وأنك مهما بلغت من

علمك لستَ سوى فرد ... مجرد فرد في عالم يزداد (١٤١) نفساً في كل دقيقة ويزدحم بستة مليارات ونصف من وجهات النظر!

والآن وأنا أنهي مقالي "الخطير" يخطر لي خاطر فأكاد "أخرب من الضحك" وأنا أتخيل واحداً من هؤلاء السادة وهو يقـرأ هـذه السطور ويهز رأسه موافقاً -بالحرف الواحد- على كل مـا ورد فيه من انتقادات شريطة أن تكون موجهة الى "الطرف الآخر" ثـم يطوي الجريدة ويلتفت الى صاحبه ظافراً متبسماً وهو يصرح بهذا التصريح الخطير:

هذا الكاتب خوش فاضح ذولاك الجماعة.. يا أخي هذوله الـ.. ميصير إلهُم جاره، مو أوادم، ما بيهم شريف!!

فخامة الرئيس..
نريد وزيراً للثقافة يجيد القراءة والكتابة!!

فخامة الرئيس الموقّر

هذه رسالتي العلنية الرابعة الى سيادتكم. وإن كونها الرسالة الرابعة يعني بالضرورة أن ثلاثا من الرسائل قد سبقتها، لكنه لا يعني بالضرورة أن سيادتكم قد تفضلتم بقراءة أية واحدة منها ناهيك عن الاهتمام بها أو الإجابة عليها!!

غير إنني أستطيع أن أجد العذر لكم في انشغالكم بالمشكل السياسي العويص وفض الاشتباكات المستمرة بين الأطراف المتآخية/المتقاتلة التي ما زالت ومنذ سنواتٍ تناهز الخمس تواظب على رسم المشهد العراقي الدموي البهيج الذي اختلط فيه الحابل بالنابل حتى أضحى كمشهد يوم الدينونة في لوحات رسامي القرون الوسطى! كما إنني –وهذه نعمة من صاحب الأنعام– أستطيع أن أجد العذر لنفسي في اعتيادي على خيبات الأمل والتطلع الى البروق الخُلَّب التي لا تجرُ وراءها مطراً أو حالوباً أو حبةِ كمأٍ عجفاء في صحراء الروح التي افترشت خمسة عقود من العمر.

وهذه الرسالة -كما يتضح من عنوانها- لا تحمل أية هموم أو تطلعات شخصية تخص العبد الفقير... إنها باختصار رسالةٌ من أدباء العراق ومثقفيه على لسان كاتب السطور الى ساسة العراق وحاكميه ممثلين بشخص رئيس الجمهورية بالتحديد، أما مناسبتها فهي الحديث الدائر منذ شهور عن الحكومة الجديدة التي تقول بعض "المصادر المطّلعة" أنها ستجلب الخير والسلام والأمان والثراء والشبع والصحة والعافية والحب والسعادة وراحة البال والرفاه والبنين وطول العمر وبحبوحة العيش الى أصحاب السعادة المواطنين!

ولكن ما لنا وهذه الأقاويل المغرضة التي تخرج عن نطاق الاختصاص والشرعية الدولية؟! إن جلّ ما يتطلع المثقف العراقي الى حشر أنفه فيه ضمن الحديث "المشار إليه آنفاً" هو مسألة اختيار وزير جديد للثقافة العراقية:

إذ لا يخفى على سيادتكم -وانتم من أكثر الساسة العراقيين قرباً من تطلعات المثقف العراقي وهمومه- أن تجربتنا مع آخر وزيرين للثقافة فرضتهما المحاصصات الطائفية-السياسية أو السياسية-الطائفية هي تجربة تبعث على لطم الخدود وشق الجيوب وذرف السواجم واستنزال الرواجم؛ فأين الثقافة العراقية التي شادها عمالقةٌ من أمثال الرصافي والجواهري وجواد سليم وحقي الشبلي وغائب طعمة فرمان ويوسف العاني وفائق حسن و.. و..

و.. من آمر مدرسةٍ عسكرية –مع احترامنا لشخصه الكريم ولكل ضباط جيشنا الباسل– تتلخص كل مساهماته في الحيــاة الثقافيــة العراقية في التوقيع على "أوامر القسم الثاني" أو من شيخ جــامع سابق مطلوب للعدالة بتهمة القتل والإرهاب! وأين هذا من المبــدأ الواضح البسيط القائل بوضع الرجل المناسب –أو المعقــول فــي أسوأ الحالات– في المكان المناسب؟ فلقد قرأنــا والله لن بتهــوفن ألّف آخر أعماله الموسيقية وهو فاقد للسمع ورأينا عادل إمام فــي دور أعمى يقود فريقاً لكرة القدم وشهدنا من يرسم بأصابع قدميه، لكننا لم نرَ أو نسمع براقصة باليه مصابة بالــشلل الــولادي ولا بمطربٍ أخرس ولا بوزيرٍ للثقافة لا يفرّق في ميدان الثقافة بــين الألف وكوز الذرة كما يقول أخوتنا المصريون!

إننا يا سيادة الرئيس لا نطلب الكثير، ولا نريد أن نتشبه بفرنسا ديغول (وقصة الأخير مع وزير ثقافته/ثقافتها أندريه مالرو مــن الحكايات المعروفة التي تحلو قراءتها عند مثقفي الشرق الأوســط الحالمين كما يقرأ الصغار حكايات سندريلا أو علاء الدين) لكننــا نريد (ونحن أبناء واحدة من أغنى بلدان الأرض في عدد شعرائها وأدبائها وفنانيها وأكاديمييها وخريجيها وأحفاد أسبق النــاس الـــى اختراع الكتابة وخطّ أول ملحمةٍ أدبية وسنّ أقدم قانونٍ في العالم) أن نرى وزيراً للثقافة يشبه وزراء الثقافة في أفقر بلــدان العــالم وأشدها تخلفاً وأقربها عهداً الى معرفة القراءة والكتابة! وليس هذا

بعزيز أو صعب حتى لو مرَّ من ثقوب منخل الفرز الطائفي البغيض ولقد شهدتم وشهدنا في تاريخ الدولة العراقية وزراء للثقافة أو للإعلام أو للإرشاد من مختلف المشارب والانتماءات (ما من داعٍ الى ذكر أسمائهم) نجحوا في عملهم وساهموا في إغناء الثقافة العراقية وتنشيطها فمنهم من رحل عن هذه الدنيا تاركاً ذكره الطيّب ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا! فهل فرغ العراق من رجلٍ يصلح وزيراً للثقافة سنياً كان أم شيعياً أم كردياً أم مسيحيا أم صابئياً.. أم ..أم ..وعذراً على الانسياق وراء هذه التقسيمات! وهل سنرى من على شاشات التلفاز وزير الثقافة المقبل وهو يستعرض أمام البرلمان قبل التصديق على تعيينه قائمةً بالكتب التي ألّفها أو المعارض التي شارك فيها أو على الأقل أبيات "المحفوظات" التي قرأها في الابتدائية!

فخامة الرئيس

إن مثقفي العراق يطالبون بحقهم في أن يكون لهم رأي في اختيار وزير يقود وزارة الثقافة في بلاد العلم والفن والثقافة، وأنا بالنيابة عنهم -وبالأصالة عن نفسي كما علمتنا أصول المخاطبات بين الحاكم والمحكوم في بلاد الخمس نجوم- أتطوع عن طيب خاطر بالتنازل عن حقهم هذا لسيادتكم على أن تكون لكم الكلمة الأخيرة في اختيار وزير الثقافة المقبل باعتباركم "وكيلاً شرعياً"

عن جماهير المثقفين العراقيين الذين بحّ صوتهم من مناداة أهـل الحل والربط ولسان حالهم يردد مع المغفور له السيد أحمـد بـن السيد حسين المتنبي:

أبا المِسك هل في الكأسِ فضلٌ أنالُهُ

فإنّي أغنّي منذُ حينٍ وتشربُ؟!

ترجمةُ الشعرِ... مهنةُ المجانين!

(بمناسبة كتابي "عبور الحاجز..قصائد من الشعر العالمي)

.. ولمبتدأ جملة العنوان الخبرية الاحتجاجية التهكمية التعجبية التفجعية شقّان: كلمة "ترجمةُ" المرفوعة وجوبا لا اختيارا وشكلاً لا حقيقةً، ثم كلمة "الشعرِ" المكسورةِ المقسورةِ المجرورةِ المضافةِ إليها. لكن الإضافة ليست من وليد الصدفة العمياء أو شطحات الخيال المحلّق الذي يجيز إضافة الأسماء والصفات التي ما لا تجوز الإضافة إليه ليخرج بعبارات ليست بذات معنى أو وجود محقّق مؤكّد كمثل قولك "إعمار العراق" أو "حرية الرأي" أو "دور المثقف" أو "احترام الرأي الآخر" الى آخر ذلك من تركيب المضاف والمضاف اليه المعسّل المنمّق المتناقض المنثور على صفحات الجرائد وأفواه الساسة الجهابذة الأعلام.

أقول إن لهذه الإضافة ما يبررها، من جهة التشاكل والتقارب واستقامة المعنى أولاً: فالترجمة فن، والشعر فن؛ والترجمة همٌّ والشعر هم؛ والترجمةُ جهدٌ عقيمٌ في عراقنا السعيد العظيم والشعر لا يقل عنه عقماً: يشهد على ذلك نادي اتحاد الأدباء الزاخر بالشعراء الطاوين الضامرين المفلسين العاكفين على العويل،

وتشهد على ذلك قبور شعرائنا المهزومين المهجرين المهـــاجرين التي تناثرت في المشارق والمغارب.

أما ثانياً فإن من الشعراء من لا يكتفي بأن ينوء طوعا بحمـــل صليب الشعر الثقيل المدمى ليجرجره في الأسواق بين حشود من السوقة والمرابين والعسس وأصحاب السلطان من المشاة والراكبين وكلهم –إلا أقل القليل– من الهازئين الساخرين النـــاقمين الـــذين يرمونهم بكل ما يقع بين أيديهم بدءً من الحجارة أو قشور البطيخ وصولاً الى "القرارات الحكيمة" و"المكرمات السخيّة" التي تـــشبه البصق في الوجوه!

أقول أن بعضاً من هؤلاء الشعراء –ومنهم العبـــد الفقيـــر– لا يكتفي بحمل صليبه بل يأبى إلا أن "يزيّن" جبينه بإكليل من أشواك الترجمة التي تنغرس عميقاً في جلودهم وتقطر منها الدماء التـــي لا تعدم من ينقع فيها ريشة دجاجة منتوفة أو قلم خشبي من العصر المسماري ليخط على أسمالهم قولاً أثيراً لا يخلـــو مـــن الحكمـــة والصدق: هذا مجنون آخر جمع الشعر الى الترجمة!

وتراهم –أعني المجانين– رغم هذا مقبلين فـــرحين راضـــين ولسان حالهم يردد مع المغني بلسان عراقي فصيح:

أشباهه بيّه جروحْ

واضحكْ واسيس الروحْ

والبيّه بيّه!

وهم في كل ذلك معرضون عن التمثل بمصاير من سبقهم من الأولين والآخرين، مدبرون عن نصائح المحـذرين مِـن جمـيعِ الوزرين، ابتداءً من عمرو بن بحر البصري المولد البغدادي الوفاة وانتهاءً بروبرت بن فروست السانفرانسـسكوي المولـد-النيـو انجلاندي الوفاة!

لكنني، فيما يلي من السطور، أضيف الى نصائحهم بعضاً مما وقع لي وما جربتُه -لا ما سمعتُ به- من مضحكٍ مبكٍ، عسى أن يرتـدع المرتـدعون: فلـسوف تكـون مخطئـاً -أي زميلـي الشاعر/المترجم- إذا حسبت أنك ستلاقي الجزاء على سهرِ الليالي الطوال وتقرّحِ الجفون الثِقال وانحناء الظهور بالأحمال بحثاً عـن المعاني والظِلال وإدراك مراد الشاعر الذي تترجم عنه أو ما رسم بقلمه من تصاوير وأحاسيس وانفعالات، ثم البحث عمّا يقابلها من كلمات وجمل وإيقاعات الخ.. فلسنا في زمن يتهافت فيـه النـاس على تذوّق الشعر ناهيكَ عن شراء كتابٍ، أي كتاب، وناهيك ثانيةً عن كتب الشعر وناهيك ثالثةً عن كتب الشعر المترجم!

فالقوم واحد من اثنين: مشغولٌ بلقمةِ العيش وصـفيحةِ الـنفط وحبّة الدواء وخطٍّ الكهرباء، أو مشغولٌ بتعظيمِ الكـرش وتثبيـت العرش وضم القرش الى القرش.. والأدب والثقافة والفن والشعر ليس مما يدخل في استحقاقات آخر الشهر لدى الرهط الأولين ولا

مما يدخل في "الاستحقاقات الانتخابية" أو الطائفية لـدى الـرهط الآخرين.

ولا يغرنّك أنك أودعت كتابك عند دار نشرٍ تسمّت باسـم دار الرشيد أو دار الحكمة أو دار المأمون الذي كـان يـزن الكتـب المترجمة بالأصفر الرنّان .. فالقوم فيها أكثر منك فقراً وإقـصاءً وتهميشاً وتعلقاً بحبال المستحيل.. وهم معك في نفس الطرف من الوادي الذي تصرخ فيه وما من مجيب.. وهـم لا يملكـون مـا يكافئونك به من مال سوى دنانير أربعة لا غيرهـا لكـل كلمـة تترجمها.. نعم أربعة دنانير يستنكف عنها كاتب عرائضٍ عند باب محكمة لم يسمع في حياته بشكسبير أو بايرون ولا يفـرق بـين المدرسة السريالية ومدرسة "القائد المؤسس النموذجية" أو "شـهيد الـ... التأسيسية". وحتى لو طالبت بهذه المكافأة البخسة على مـا بذلت فقد يصادف أن تجد "خزانة" الدار خاوية مكنوسة كبيت مال المسلمين تحتَ والٍ مؤتمن أمين، لأن أسيادنا الجدد قـد تركوهـا لمصيرها كما فعلوا بكل المؤسـسات الثقافيـة الحكوميـة منهـا والـ"مدنية" أواناً بحجة "التمويل الذاتي" وآونـة بحجـة "تجميـد الأرصدة" وثالثة (وهم في هذا محقون) بـسبب تـدهور الكفـاءة التصفيقية والتملّقية للمثقف العراقي الأصيل بعد التاسع من نيسان "الأغر" إلا من نفرٍ لا تخلو منه الساحة في كل زمان ومكان.

أما إذا كنت من الباحثين عن الكسب المعنوي مما يدعوه البعض مجداً أو شهرة فإن بينك وبين ذلك خرط القتاد! فلن تنهمر عليك "اللقاءات" ولن تتسابق عليك "الفضائيات" ولن تقرأ عن عملك المجهد المضني غير خبر مقتضب في زاوية من صحيفة يقرفص في خجل جوار تقرير مصور عن التوأم المحروس للسيدة "أنجلينا جولي" وزوجها الوسيم "براد بيت". ولن تسمع غير عبارة مجاملة موجزة لينقلب محدثك بعدها الى السؤال عن آخر أخبار السمراء الهيفاء "نور" وزوجها "مهند" الأشقر العندور. وقلما تجد ناقدا يتناول كتابك بالتقييم أو التصحيح أو التصويب أو النصح أو حتى التجريح؛ فالنقد هو الآخر سلعة بائرة! لكنك لن تعدم موقعاً الكترونيا أو دار نشر أو صحيفة مطبوعة تستل ما تشاء من كتابك أو تعيد طبعه بالكامل دون إذن منك أو معرفة.. هذا إذا لم ينحله أحدهم لنفسه أو ينشره غفلاً من اسم المترجم في أحسن الأحوال!

أضف الى هذا أن فرحتك بخروج كتابك الى النور بعد طول انتظار لا تلبث أن تتبخر حين ترى "الأخطاء المطبعية" أو التغيرات التعسفية التي لا تعرف لها من سبب سوى "عقيدة" من قيّم مخطوطتك وما تمليه اعتبارات "الوضع السياسي القائم" و قيود "السلامة الفكرية" واشتراطات "إيديولوجيا" الدولة السائدة. ولا تقل لي أننا في زمن جديد زالت فيه هذه القيود والاشتراطات والاعتبارات حتى لا أضطر الى إيراد أمثلة غاية في الجدّة

والطرافة على حرص "الرقيب" وإن تغيرت تسميته على سـلامته وسلامتك في زمن التكفير والتطبير فله منّا كلٌ شكرٍ وتقدير!

وخلاصة الرأي أيها الصديق فإني أنصحك على ألا تقدم على ترجمة الشعر إلا إذا تيقنتَ من جنونك جنوناً لا شـفاء منـه ولا رجعة عنه. أما إذا ألح عليك شيطان الترجمة فإن أمامك واحدا من طريقين: أن تتهرب منه حين يرسل في طلبك أو يجدُ في ملاحقتك فتتذرع بالجنون المؤقت كما فعل الحكيم "أودسيوس" حـين شـد ثورين الى محراثه وراح يحرث ساحل البحر ويبذر فيـه الملـح سعياً الى التملص من وفود زملائه ملوك الإغريق الذين أرسـلوا وراءه كي يشاركهم حربهم السخيفة من أجـل الغانيـة "هيلـين" وخاطفها الأرعن "باريس".. ولا يمنعنك من هذا حياءٌ أو خفر (فأنْ تتظاهر بالجنون خير لك من أن تلازمه ويلازمك بقية العمر) وأما أن تترجم شيئاً آخر بعيدا عن الشعر والأدب، ولا بـأس فـي أن تترجم بضع وريقات عن طبخ الباذنجان أو شيء من هذا القبيـل، فقد تحصل نظير هذه الوريقات على عـدد مـن الـدولارات –لا الدنانير– تزيد على ما حصلت عليه طوال عمرك الأدبي العتيد.. وهذا قول مجرّب لا حكيم!

ألا هل بلّغتُ؟ أللهم اشهد!!

راشديات الثقافة.... وثقافة الراشديات

١

لا أعرف بالضبط من أين جاءت لفظة (الراشدي) العراقية المرادفة للفظة (الصفعة) العربية الفصيحة، وفيما إذا كانت لها أية علاقة بالرشاد العقلي أو بمستشفى "الرشاد" للأمراض العقلية الكائن في منطقة الشماعية أو بناحية "الراشدية" شمالي بغداد أو بالسيد "راشد" الذي واظبوا على إخبار الناس خلال حملة محو الأمية الشهيرة في أواخر السبعينات بأنه "يزرع" جنباً الى جنب مع المواطنة الصالحة "زينب" التي "تعمل" حتى ظن بعض البسطاء أن جملة "راشد يزرع، زينب تعمل" صارت إحدى شعارات الحزب القائد!

وكنت أتمنى أن يكون المرحوم الشيخ جلال الحنفي حياً يزرق لأسأله عن معناها، إلا أن الرجل غادرنا حتى من قبل أن يكحل عينيه برؤية كامل مسودات معجمه الفريد "معجم اللغة العامية البغدادية" مطبوعة متداولة، بيد أنه لم يكن لينسى بالتأكيد أن يخبرنا بطريقته الموسوعية أن "الراشدي" هو "القلم" باللهجة المصرية و"الكف" بالسورية والـ "شه ق" بالكردية والـ "slap"

بالانكليزية و الــ "claqu " بالفرنسية والــ "Schlag" بالألمانية.. الخ الخ!

لكنني أعرف كما يعرف القراء أن الراشدي (وتوأمه الجِلاّق) يحتل مكاناً بارزاً في الثقافة الاجتماعية العراقية وهو أحد وسائل التعبير المرموقة عندنا إضافة الى كونه وسيلة تربوية راقية يلجأ اليها الآباء والأمهات والأزواج والمعلمون والمعلمات لتربية وتهذيب أبنائهم أو تلاميذهم أو زوجاتهم – وأزواجهن في بعض الأحيان!

أما الذين يحظون بشرف الاستضافة في مراكز الشرطة والأمن ومعسكرات الأسر ومقرات الأحزاب "المناضلة" ومنظماتها "الجماهيرية" وميليشياتها "المجاهدة" فيعرفون أن تلقيهم بضع راشديات في بداية اللقاءات الأخوية الحميمة ليس سوى مقدمة بسيطة تعبّر عن واجبات وتقاليد عريقة في إكرام الضيف وخدمته، وأنهم، إذا كتب لهم الخروج أحياء من تلك المضايف سيظلون محتفظين بذكريات عزيزة ومثيرة (ووشوم جميلة) تنسيهم ذكرى تلك الراشديات الترحيبية الكريمة!

ثم إن هناك من الإخوة السياسيين من "شبع راشديات" أثناء التعذيب في سجون ومعتقلات النظام البائد، وكنا نظن أنهم سيظلون أوفياء للقضية التي تحملوا من أجلها تلك "السطرات" أو للشعب الذي تلقوا لخاطره تلكم "الدفرات" لكنهم سرعان ما غسلوا

وجوههم النظيفة ببـــــو..هم عندما انتقلوا الى مواقـــع الـــسلطة فصاروا يصعرون خدودهم "المرَشّــدة" للنـــاس ويمـــشون فـــي الأرض.. عفواً في الهَمَرات مرحا.

أما أنا فأحتفظ شخصياً بذكريات مؤلمة عن بضعة راشـــديات تلقيتها في الابتدائية ظلماً وعدواناً منها ذلك الراشدي الذي تلقيتـــه في الصف الأول الابتدائي من قبل المعاون المرعب الذي أصـــر على معاقبتي لأن المرحومة أمي كانت قد لفت رقبتي وآذاني بدثار أو "لفَاف" صوفي يحميني من برد الصباح القارص، ولم نكن أنـــا وأمي على علمٍ بأن ذلك اللفاف يعد انتهاكاً صارخاً لقواعد السلوك والأتيكيت المتبعة في مدارس اوكسفورد الداخلية التي كانت تتبعها مدرسة القدوة الابتدائية في مدينة الحرية الثانيـــة خلـــف العلـــوة الشعبية!

لا أنكر أن من الناس من يفتحون شهيتك لصفعهم أما لقبحٍ في أخلاقهم أو لشيءٍ في خلقتهم يوحي بأنهم خلقوا ليُصفعوا .. شأنهم شأن ذاك الأحدب المسكين الذي خلده عبد الله بن النطّاح عنـــدما رسم صورته الكاريكاتيرية:

قَصُرَتْ أخادعهُ وغاصَ قَذَالهُ فكأنهُ متوقِّعٌ أن يُصفَعَا
وكأنه قد ذاقَ أوّلَ صَفْعةٍ ولَحَسَّ ثانيةً لها فتجَمَّعَا

لكن الصفعة في كثير من الأحيان تشكل إهانة كبيرة لمن يتلقاها خصوصاً إذا كانت علناً وعلى رؤوس الأشهاد.. وتعبر في أحيان كثيرة عن عدوانية وهمجية الصافع خصوصاً إذا وجهها ظلما الى من هو أضعف منه.. وقد تشكل عند قوم آخرين "ظاهرة صحية مستحبة" وعلامة على التحدي والثورة والغضب من ظلم واقع أو خسةٍ أو نذالة من جهة المصفوع وعندها قد يستدعي الأمر أن يُعانَ "الراشدي" العتيد بشيءٍ من ملبوسات الأقدام زيادة في الإهانة والحط من القدر، ومن هذا ما صرح به الشاعر:

قومٌ إذا صفعَ النعالُ وجوههم   صاحَ النعال بأي ذنبٍ أصفَعُ!

وللصفع تاريخ قديم عند العرب، وقد ارتبط الصفع بالسياسة وأمور الحكم حتى أن عزل خليفةٍ أو والٍ أو قاضٍ دون أن يتلقى عدداً من الصفعات صار أمراً نادر الوقوع. يحدثنا صلاح الدين الصفدي أن الملك الناصر أمر ذات مرة بعزل قاضٍ يدعى شمس الدين بن عدلان فدخل عليه –أي على القاضي– شاعر هَجّاء يدعى أحمد بن عبد الدائم وقال له: يا سيّدنا

والله ما سرّني عزلُ ابنِ عدلانِ

فقال له الشيخ شمس الدين: حاشاكم يا مولانا جزاكم الله خيراً، فقال:

من غير صفعٍ ولا والله أرضاني

فقال: قبَحك الله يا نجِس!

ولو أردنا أن نستعرض كل ما في "تراثنا الحضاري الزاهر" قديمه وحديثه من صور الركل والصفع ونتف اللحى لما بلغنا المنتهى، لكنني سأكتفي -في سرد العلاقة الحميمة بين الثقافة والراشديات- برواية ثلاث حالات من تاريخنا المعاصر كنت في الأولى شاهداً عليها وفي الاثنتين الأخريين سامعاً من محدثٍ لا أشك بصدقه، أما ما يجمع بين تلكم الحالات فهو، ويا للأسف، أن كلا من طرفي "العملية" أي الضارب والمضروب كان من المثقفين أو من المحسوبين على المثقفين وفي ذلك عبرة لذوي الألباب:

حدثت الواقعة الأولى في إحدى الأمسيات في أواسط السبعينات: إذ كنت في زيارة لأقاربي في إحدى المحافظات القريبة وتصادف حضوري مع حفل كان سيقام عصراً بمناسبة "احتفالات شعبنا المناضل بذكرى ثورة ١٧-٣٠ تموز المجيدة جدا". حصل قريبي على مقعدين "سفريين" في الحديقة الكبيرة وبدأ الحفل وتوالت الراقصات والمطربون والمطربات لكن الجميع كانوا بانتظار الفنان الكبير "..." القادم من بغداد، الذي تأخر في الظهور رغم تكرار الإعلان عن فقرته لسبب كنا نجهله. ولأنني كنت جالساً في الصف الأول، ولأن خشبة المسرح لم تكن غير

دكة أسمنتية مفتوحة وراءها غرفة صغيرة وجدار "ملبوخ" تحول بعد بضعة أعوام الى جدارية للرئيس القائد، فقد استطعت أن أرى الفنان الكبير (الذي كان وما يزال محط إعجابي) جالساً في تلك "الكواليس" يتجادل بشدة مع رجلٍ طويل لم أكن أعرفه. وفجأة رأيت ذلك الرجل وهو يرفع يده ويهوي بصفعة مدوية على خد الفنان الذي ذهل في البداية ثم انخرط في البكاء لينهض بعدها ويكفكف دموعه ويصعد الى المسرح ويصدح بأغنياته وكأن شيئاً لم يكن. أثار المشهد الذي جرى بسرعة البرق (والذي ما زال محفوراً في ذاكرتي) دهشتي واستغرابي وحاولت أن أجد له تفسيراً فلم تأتني غير جملة مقتضبة همس بها قريبي وهو يشير الى الرجل الطويل: هذا أستاذ فلان.. شاعر الحزب!!

وشاءت الأقدار أن انتقل بعد زمنٍ للعمل في تلك المدينة، وأن تجمعني بذلك الرجل صداقة حميمة رغم الخلافات والتقاطعات في كثير من وجهات النظر، فقد اكتشفت فيه شاعراً قديراً مطبوعاً متمكناً من فنه وحائزاً -وهذا للعلم أمر مهم لمن لا يدري- على قدرٍ من الجنون والطفولة والمغامرة يؤهله للقب الشاعر. ولأنني لست متعوداً على أن "أبلع لساني" فقد واصلت سؤاله عن ذلك "الراشدي التاريخي" غير آبه بحرجه وتهربه من الجواب الى أن استسلم لإلحاحي وأفضى لي بروايته عن الواقعة فقال:

–كنتُ عريف الحفل والمسؤول عن تنظيمه وإدارته، وقد كنت حريصاً على مشاركة هذا الفنان بالذات، لكنه عندما حضر أفرط في الشراب حتى فقد توازنه، كما بدا أن بعض تصرفات الجمهور لم تعجبه، وعندما طلبت منه تقديم فقرته رفض بعناد فتجاوزته الى من يليه ثم عدت اليه فلم يقم وأصر في نوبة سكره أنه لن يغني حتى يكلمه "القائمقام شخصياً" فقلتُ له "أنا القائمقام" فقال "إذن فليأتِ مسؤول الحزب ويكلمني" فقلتُ له "أنا مسؤول الحزب" فقال "إذن أريد أن أتحدث مع مدير الأمن" فقلتُ له "أنا مدير الأمن" غير أنه واصل عناده فاضطررت الى أن أهوي على وجهه بتلك الصفعة لأعيد إليه صوابه، وهذا ما حصل بالفعل، فقد سكب دمعتين ثم أفاق من سكرته وقام ليغني كأحلى ما يكون" ثم تبادلنا القبلات والأحاديث الودية وعاد الى بغداد مودعاً بالسلامة!

–"إذن فالأمر لم يتعلق بالسياسة" سألته متشككاً ومناكداً.

–"لا والله، لا سياسة ولا بطيخ!"

ولقد صدقته وتأكدت من صحة كلامه حين اجتمعنا نحن الثلاثة: أنا وصديقي اللدود والفنان الكبير في إحدى المناسبات العامة بعد عشرين عاماً واندمجنا في حوار جميل لأكتشف مدى رقة ذلك الفنان وثقافته ودماثته وطيبته. لكنني لم أنس أن أتطرق عامداً (لأعابث صاحبي وأغيظه) الى ذكر تلك المدينة وذكرى

زيارته اليها فبدا وكأنه نسي أو تناسى تماماً تلك الحادثة ولم يذكر المدينة وأهلها إلا بكل خير! فالتفتت الى صاحبي وهمست له:

-"انكسرت إيدك. كيف مدنتها الى مثل هذا الانسان؟!"

٢

إذا كان الراشدي الأول داخلاً في خانة "إعادة الرشد" كما أشارت ملاحظة ذكية لأحد الأصدقاء المعلقين الذي فرق بينه وبين "السطرة" التي تسطر أي تُذهب الرشد، وإذا كان بعيداً -الى حد ما- عن التوصيف السلطوي للعملية أي صدورها من "الما فوق" الى "الما دون" كما اعتاد "العريف عيدان" أن يُدخِل في أدمغتنا العنيدة في مركز التدريب العسكري، وهو السبب في اللهجة "المتراخية" غير المتشددة في الإدانة -كما أخذ عليّ صديقٌ آخر- لاعتقادي بأن الطرفين في تلك الحادثة متورطان في حينها بالصعود الى المركب نفسه: مركب توظيف القلم والريشة والفرشاة والكاميرة والنغمة -عن قناعة أو عن غيرها- في خدمة الماكنة الإعلامية للسلطة الحاكمة آنذاك، ولكون الطرفين -وهو أمر يحسب لهما- من الذين أعلنوا بشجاعة وصدق أسفهم واعتذارهم عن بعض مواقفهم السابقة.

أقول: إذا كان الراشدي الأول تصاحبه كل هذه "الظروف المخففة" كما يقول أهل القانون، فإن الراشدي الثالث كما سنأتي

على تفاصيله لاحقا يمثل نموذجاً "للظروف المشددة" للراشدي البعثي الفاشي "المتميّز".

أما "راشدينا" الثاني فهو حالة غريبة تحتاج الى تحليل "سايكوباثي" و" سوسيو-بوليتيكي" و "سيمونطيقي" .. الخ من طاقم المصطلحات! إنه باختصار "راشدي" الخائف المرعوب الذي يحمل شرطيَّهُ أينما حلَّ من الأرض ذات الطول والعرض. ولندخل في صلب الحكاية وأترك لكم الحكم فيها: حدثت هذه الواقعة في إحدى العواصم العربية في تلك الأيام "الخالدة" .. أيام "قادسية صدام المجيـ...دة وأم المعارك الفريدة" عندما كانت العواصم العربية "الشقيقة" مرتعاً وبوابة خلفية لأصحاب السواعد السمراء والشوارب المفتولة من "الويلاد" و "الملحقين" من كل الأصناف والألوان (وهو مشهد له علاقة وثيقة بأجواء القصة)..

في جلسة ضمت الموسيقار العراقي المغترب (...) والممثل العربي الراحل (...) جرى التطرق الى الحديث و(العياذ بالله) عن السياسة والسياسيين والقادة العرب. ولأن الفنان العربي الراحل كان قد عاش فترة من حياته في العراق أيام حملة السادات على اليسار المصري وكان يعرف "البير وغطاه" ويعرف أي نوع من الرجال يحكم هذا البلد المسكين، ولأنه ظن أن وجوده في عقر داره سيسمح له بقول ما يشاء فإنه أدلى بتعليق يعد مساساً بشخص "صكّر البيدة حفظه الله آنذاك" فما كان من موسيقارنا الكبير إلا أن

يستنفر غيرته اليعربية المستعارة دفاعاً عن قائده الفذ ويهوي على وجه الممثل العربي بصفعة مدوية كان بـــالطبع حريـــصاً علـــى إشهارها أمام أعين من حضر من العراقيين أولاً ليقوموا بإيصالها الى أولي الأمر منهم!

—"وفيما العجب يا أرشيدوق!؟ إنها مجرد صفعة أخـــرى فـــي تاريخنا الحافل بالصفعات "

قد يسألني سائل عن وجه الغرابة في ذلك. وسأجيبه أن الأمـــر ما كان سيعد بالشاذ أو الغريب لو أنه صدر عن واحد مـــن أزلام النظام أو سفرائه أو وزرائه (وما تزال ذكريات الصحون الطائرة للسيد ... أو المشاهد المسلية للرفيق عـــزة فـــي مـــؤتمر القمـــة الإسلامية، باعتباره آخر "أرفع" مسئول بعثي يحضر مؤتمراً دولياً ويمارس فيه سلوكه النموذجي، طرية وماثلة في الأذهان).. لكـــن أن يصدر هذا الراشدي من موسيقار مثقف مرهف الحس كصاحبنا لنصرة زعيم مافيا ووحش يتلذذ بالدماء فلا يعني إلا أن غريـــزة البقاء هي التي تحكمت بالفنان لفعل ما فعل لعلمه بأنه إن اكتفـــى بالسكوت أو العتاب الرقيق (ناهيك عن الموافقة والتأييد) لارتفعت التقارير من فورها متهمة إياه بالخيانة والتخاذل والتعـــاون مـــع الأعداء الحاقدين ولك أن تعرف العواقب!

ولكي أساعد القارئ الكريم على تخيل بعـــض الـــسيناريوهات المحتملة سأتطوع بعرض بعض ملابسات القضية وأقارنها بقضية

أخرى لها بعض الشبه: ولأوضح أولاً أن فناننا القدير كان بعيداً تماماً عن الشعور بالأمان حتى وهو نـاءٍ عـن "بغـداد المحبـة والسلام" فقد سبق أن جرب الدخول في جدال بسيط مع مـسؤول عراقي في عاصمة عربية أخرى ليجد نفسه "مشحوناً" بطريقة فنية سحرية الى عاصمة بلاده حيث مقرات الأمن التي قدمت له -بلا شك- واجب الضيافة المعهود وتحدثت معه حديث "أخ مع أخيـه ومواطن شريف مع مواطن شريف". والحق أن الرجل قد خـرج منها بعد فترة وجيزة جداً تعد رقماً قياسياً بمعايير ذلك الوقت وعاد معززاً مكرماً الى نشاطه في الخارج مع ملاحظة تحوله الى نجم مدلل في وسائل الإعلام الحكومية وزيادة ملحوظة في التضمينات والإشارات "القومية" و "القادسيوية" في موسيقاه، الأمر الذي يؤكد أنه فهم الدرس سريعاً!

ولنعد الى القضية المشابهة: فقد حدث أن التقينا خلال وجودنا في جبهات الحرب العراقية-الإيرانية بزميل مجند جديد من الوسط الطبي لاحظنا فور قدومه أنه يكبرنا بعدة أعوام أي أن (مواليـده ساقطة) حسب التعبير الشائع في أوساط الجيش. كما لاحظنا بعـد فترة من اندماجه معنا أنه يسكت تماماً ويشحب لونه ثـم يـشيح مبتعداً إذا ما جرنا الحديث الى أدنى تعليـق تـشم منـه رائحـة السخرية أو التذمر من الوضع القائم. ظل هذا السلوك مثار حيرتنا الى أن كشف لنا السر وراء ذلك بعد أن صرنا الى قدر من الثقة

المشتركة: لقد كان صاحبنا يعيش في دولة عربية قريبة بعد أن أنهى بعثة الى أوربا ثم قرر الاستقرار مع زوجته العربية في ذلك البلد العربي وظل في الوقت نفسه على ارتباطه القديم بالحزب القائد حيث وصل الى درجة "عضو شعبة" أو شيء من هذا القبيل.. ولندعه يكمل الحديث:

"كانت الدنيا تضحك لي وأموري في أحسن حال حتى قررت ذات يوم أن أزور بغداد لرؤية أهلي وتعريفهم بزوجتي الحامل بطفلنا الأول وتمشية بعض أعمالي التجارية، ولكن ما أن نزلت من الطائرة حتى رأيت "الكلبجات" في يدي و "عينك ما تشوف إلا النور" من تعذيب وإهانات ورعب. أما تهمتي فكانت ببساطة شديدة "الابتسام" نعم لا تتعجبوا: الابتسام! فقد ذكرني المحققون بحادثة عرضية كنت قد نسيتها وهي أنني كنت جالساً مع مجموعة من العراقيين المغتربين فأطلق أحدهم نكتة تتعلق بالسيد الرئيس القائد فضحك بعض الحضور مثنين على النكتة فيما اكتفيت أنا بالسكوت وقد ارتسمت على شفاهي ابتسامة تنم عن الضيق والإحراج فقد كنت "والحق أقول لكم" ملتزماً بمبادئ الحزب ومعجباً بشخصية سيادته، غير أني آثرت عدم الدخول في جدال يعكر الجلسة. في التحقيق عرفت أن أحد الحاضرين رفع تقريراً مفصلاً عن الجلسة ذاكراً فيه أنني ضحكت لنكتة تسخر من الرئيس القائد وكان هذا كافيا لإحالتي الى محكمة الثورة والحكم

علي بالإعدام الذي خفف الى السجن المؤبد لأن واجبي كمسؤول حزبي يلزمني بالإبلاغ عن كل ما حدث في تلك الجلسة وما تفوّه به ذلك الخائن العميل!

ولقد قضيت في سجن أبي غريب الرهيب عدداً من خيرة سنوات عمري كانت زوجتي خلالها قد ولدت لي ابنتي التي دخلت المتوسطة ولم أرها حتى الساعة إذ فرت بها خوفاً على حياتها عائدة الى ذلك البلد. ثم خرجت من السجن في مصادفة لا تخطر في الأحلام لأجد نفسي ممنوعاً من السفر ومطلوباً للخدمة العسكرية وموقعاً على تعهد خطي بالحكم علي بالإعدام في حالة تكرار "جريمتي" .. والآن هل عرفتم سبب تهربي منكم عندما تصل أحاديثكم الى هذا الحد من التهور.. أرجوكم .. أرجوكم.. دعوني أخرج من الغرفة قبل أن تتحدثوا في هذه الأمور.. لا أريد أن أموت.. أريد أن أرى ابنتي!"

-"حسناً" سيسألني نفس السائل اللحوح "إنها قصة مؤثرة ولكنني ما زلت لا أفهم ما الذي يرغم فناننا على تحمل ذلك.. أعني لماذا لم يضرب كل شيء عرض الحائط وينفصل عن هذه الدائرة المرعبة؟"

-"تعني أن يعلن طلاقه النهائي مع النظام وينضم الى حشود المثقفين والأدباء والفنانين المنفيين في مغارب الأرض ومشارقها؟

.. جواباً على هذا سوف "أتفلسف" قليلاً برأسك ورأس القارئ الكريم وأقول لكما:

إعلموا يا إخوتي أن "جمهوريات الرعب والمكرمات" من طراز جمهورية القائد الضرورة تخلـي فيها المشاعر والعواطف والأحاسيس أماكنها لثلاثة مشاعر رئيسية تكاد تكون هي السائدة وهي الخوف والطمع والغضب، هذا طبعا إضافة الى الكآبة واليأس والقلق.. الخ من حزمة المشاعر المباركة! فإذا علمنا أن التعبير العلني عن الغضب لا مجال له وإنه غالباً ما يتحول الى أمراض نفسية وجسمانية وسلوكيات عدوانية في الأسرة والعمل، فإن المرء (والحديث هنا عن الأغلبية لا عن الجميع) لا بد أن يقع تحت تأثير خليط غير متجانس من الخوف والطمع فتزداد نسبة هذا الى ذاك أو ذاك الى هذا مما يقرر سلوكه من انكفاء أو سكوت أو تقية أو انعزال أو تملق أو مسح للأكتاف أو الأحذية الخ.

هذا الخليط من الخوف والطمع هو ما أحسبه قد دفع الفنان القدير الى هذا السلوك الشائن الخارج عن أصول اللياقة والضيافة التي لخصها المثل العراقي "يا غريب كن أديب".. فالرجل خائف من الشرطي بنوعيه الداخلي والخارجي وهو في الوقت نفسه حريص على "الرعاية الأبوية للرئيس القائد" التي تتمثل بالموقع الوظيفي والأضواء والمكرمات وحرية السفر والامتيازات

الأخرى.. التي لا يستطيع ببساطة أن يتخلى عنها وينضم الى جيوش المنفيين.

قد أكون مخطئاً في تحليلي هذا وقد أكون (كعادتي بالطبع) على صواب!! لكن الراشدي الثالث لا بد أن يكون أكثر حرارة ووضوحاً وأقل مدعاة الى دوخة الرأس .. كما إنني لا أتوقع له بالذات أن يثير الكثير من الضحك- حتى لو كان أشبه بالبكاء.

٣

ذلك لأن "الراشدي" الثالث يحمل من الصفاقة والعدوان وسوء الخلق ما يدفع الى الغضب والأسى والوجوم أكثر من سابقيهِ العتيدين: إنه باختصار -وأقولها بمرارةٍ شديدة- راشدي التلميذ المستهتر لأستاذه الجليل... وإليكم الحكاية:

كان "الفنان المعروف ....." الذي اشتهر بإخراجه لسلسلة من الأعمال "المسرحية" التجارية "البريئة" التي أطلقت في توقيت مدروس وتحت اسم "مسرحيات كوميدية شعبية" يكمل دراسته الأكاديمية في إحدى المؤسسات العلمية العريقة ببغداد، ولأن الرجل يحمل الكثير من المواهب العلمية والفنية والـ"..." فقد أصبح بالطبع مسؤولاً في اللجنة الاتحادية "لاتحادنا المناضل.. الاتحاد الوطني لطلبة العراق" .. وهذا الاتحاد -لمن لم يعش في

العراق أو لمن يقرأ هذه السطور من الأجيال اللاحقة– هو الواجهة الطلابية لحزب السلطة وأجهزته الأمنية والقمعية وهو التنظيم الطلابي الوحيد الذي لا يعاقب المنتمي اليه بعقوبة الإعدام شنقاً حسب القانون النافذ في زمن القائد الضرورة. ومن الطبيعي أن يتمتع صاحب هذا "الموقع النضالي" بالكثير من الامتيازات والصلاحيات التي تسمح له بتجاوز تقاليد الحياة الجامعية المعمول بها في كل بلاد الله.

أظن أن القارئ اللبيب قد أدرك أن هذا "الفنان" هو صاحب "الراشدي" الذي نتحدث عنه، أما الشخصية الثانية في هذه الحكاية فهو على العكس تماماً.. أستاذٌ جليل حاصل على أعلى الألقاب العلمية في مجال اختصاصه، أحد رواد المسرح العراقي العظيم بتقاليده النبيلة الملتزمة، راهب من رهبان العلم والفن وهب حياته لمسرحه ولطلبته.

كان الدكتور الراحل "..." رجلاً مهيباً يحترم قاعة الدرس ومنصة المحاضرات كما يحترم قاعة المسرح وخشبته ولم يكن – لهذا السبب– يطيق أي عبث أو استهتار أو حط من قيمة هذين المكانين ولهذا –أيضاً– رفض في إحدى الأيام السماح لطالبه الفنان "...." بالدخول متأخراً كعادته الى قاعة المحاضرات لكي يذكّره بأهمية الالتزام بمواعيد الدرس. لا أعرف طبعاً المونولوج القصير الذي دار في رأس الطالب المذكور لكنه كما يبدو قد أحس

بخدش في كبريائه المزعومة وغضب من تجرؤ هذا الأستاذ – مجرد الأستاذ، المستقل، الذي لا يملك غير راتبه الضئيل–على التعامل معه،هو "الفنان" المعروف، صاحب المسرح التجاري الذي يدر الملايين، البعثي، رئيس اللجنة الاتحادية، بهذه الطريقة الجافة؛ فما كان منه إلا أن يتقدم نحو منصة الأستاذ الجليل ويهوي على خده بصفعة كانت بحق وريثا شرعيا لكل ثقافة القهر والفاشية والظلام، ثم يستدير خارجا وقد نفخ أوداجه كما يفعل أي ... أي ماذا؟!

ترى ما الذي دار في رأس ذلك الأستاذ الكريم وهو يتلقى هذه الإهانة البالغة على يد تلميذٍ أرعن مستقوٍ بمسدسه؟ وهل تخيل نفسه يوما وهو يؤدي مشهدا كهذا لا على خشبة المسرح بل على مسرح الحياة؟ هل أخرسته المفاجأة؟ هل بكى من فداحة الإحساس بالظلم والهمجية؟ هل فكر بالرحيل.. بالاعتزال.. بالانتحار؟

لا جواب عندي لأن المشهد الفاجع ينتهي هنا ..

ثم تمر السنين لأرى نفسي جالساً أمام شاشة التلفاز، أشاهد إحدى الفضائيات المشبوهة وهي تعرض تقريراً عن حفل تكريمي للفنان المعروف، الذي وخط الشيب ما تبقى من شعر رأسه، وتشيد بمنجزاته وخدماته للمسرح العراقي.. فشعرت بحرارة تنبعث من وجهي وكأني تلقيتُ صفعةً قوية.. ورأيتني وأنا أستعيد خيطاً من الحكايات تلخص التاريخ الأسود لأولئك الذين أذلوا هذا الشعب

المسكين طوال أربعين عاماً، منذ الصفعة التي نزلت على وجه الزعيم الشهيد عبد الكريم قاسم بعد أن أسرته كلاب الانقلاب الفاشي الدموي في ٨ شباط ١٩٦٣ الى اللحظة التي نقلت الينا الفضائيات مشهد الطفل العراقي المجهول وهو ينزل صفعاً بنعاله على الوجه المعدني الكالح للصنم المتهاوي للطاغية الذي فرّ الى حفرته وأسلم البلاد الى الذين جاؤوا بحزبه الى الحكم قبل ذاك بأربعين عاماً!

ورأيتني أستعيد ما فعل هؤلاء الهوج بالثقافة العراقية من تخريب وتسطيح وإذلال منذ أن "صدح" أحد أوائل مداحي "صكر البيده" بمقولته الخطيرة "الما يريد البعث مَنريد أغانيّه!" حتى انقطع إرسال إذاعات صوت الجماهير وأم المعارك والحواسم لتتوقف سمفونية "فوت بيها وعلزلم خليها"

ورأيتني أستعيد ما فعل هؤلاء الأجلاف بنظام التربية والتعليم في بلاد الرافدين –أقدم بلاد عرفت الكتابة والقراءة والمدرسة– منذ أن صدر قرار "تبعيث" التعليم على يد القائد الملهم الذي أطلق النار في مراهقته على معلمه في المدرسة، مروراً بتعيين العصابجي "..." وزيراً للتعليم العالي والصحة معاً، مروراً بمنح الصبي الأرعن المدمن شهادة ما بعد الدكتوراه من قبل لجنة مناقشة مرعوبة كان أعضاؤها ينادونه فيها بلقب "الاستاذ الفاضل"!

وصولاً الى ما نحن فيه من خراب وجهل طال المؤسسات الأكاديمية من الرأس حتى القدمين.

ربما كانت هذه مجرد حكايات ثلاث.. حكايات عن زمن مضى..

ولكن هل توقفت الكوميديا/المأساة؟ هل انتهت حقاً ثقافة الراشديات أم أن ثقافة أخرى حلت محلها: ثقافة منابر التجهيل والحقد الطائفي والسيوف والثاقبات وكاتمات الصوت والسيارات المفخخة حتى صارت تلكم الراشديات ذكرى جميلة نتوق إليها.. أم أن هذا وريث ذاك؟

ويا سيدي .. يا أيها المسيح..ها هم منذ آلاف السنين يضربوننا على خدنا الأيسر فنديرلهم خدنا الأيمن فمتى ينتهي كل هذا؟ وهل سنصحو يوما لنجد أنفسنا في عالم بلا وحشية .. بلا تخلف .. بلا قهر.. بلا راشديات؟!

(رسالة أخرى)

فخامة الرئيس.. نريد مكتباً لرعاية المثقفين الموتى!

فخامة الرئيس الموقر

لأن بعض الأدباء والمثقفين والفنانين الأحياء ما فتئوا ينظرون الى السياسي وهم يرددون مع المغنية المغربية السمراء أغنيتها القومية الملحمية: ما عندي والي ..غيرك يا غالي!

ولأن الأديب والمثقف العراقي لا يتفق مع التصريح الخطير الذي أدلى به ذات يوم جده أبو فراس الحمداني والمتضمن دعوته الى عدم نزول المطر إذا مات "المومأ اليه" ظمآناً.

واستنادا الى ما يترتب على ذلك من أن أقصى ما يتمناه هذا الأديب أو المثقف هو ذكر طيب بعد الموت وشاهد قبر نقشت عليه بعض عبارات المجاملة والتشجيع الأخروي .. بعد أن يئس طبعاً من أي تكريم أو حظوة أو رغادةٍ أو رعاية في حياته الفانية.

ولأن سيادتكم –والحق يقال– كنتم السباقين (والوحيدين في مناسبات عديدة) الى استذكار ونعي العديد من الأدباء والفنانين والمثقفين العراقيين الراحلين، في حين أن الكثير من "السادة" من المسؤولين والوزراء والبرلمانيين أما أنهم لم يسمعوا أصلاً بأسماء

هؤلاء "الراحلين" أو أنهم يستكثرون إملاء سطرين من الكلمات "الد گلوماسية" في رثاء مجرد شاعر أو أكاديمي أو –والعياذ بالله– موسيقار أو ممثل أو رسام!

فإني أتقدم باقتراحي هذا راجيا أن يحظى بالقبول والاهتمام وإحالته الى مجلس النواب الموقر لدراسته وإقراره .. والله من وراء القصد:

قانون تأسيس مكتب خاص لرعاية الأدباء والمثقفين الموتى

يشكل مكتب حكومي خاص على مستوى عال مهمته رعاية وحماية وتشجيع الأدباء والفنانين والمثقفين والأكاديميين الموتى حصراً.

أولاً:

١. تحدد واجبات هذا المكتب بالأمور التالية:
٢. –توزيع الألقاب على الموتى المذكورين في أعلاه مثل: الأديب الكبير، الفنان الراحل، العالم الجليل، الشاعر الفقيد ..الخ.
٣. –كتابة بيانات النعي للمذكورين أعلاه.
٤. –إقامة الحفلات التأبينية للمذكورين أعلاه. ويحدد نوع وعدد الحفلات التأبينية (عند الوفاة، في الأربعينية، في

الذكرى السنوية..الخ) بتشريع خاص يصدر عن مجلس النواب.

٥. -لا علاقة للمكتب بالأمور المتعلقة بحصول ذوي المذكورين أعلاه على الرواتب التقاعدية أو التكريم المادي أو تأمين السكن.. الخ)

٦. -لا علاقة للمكتب بنشر الأعمال الكاملة أو الناقصة أو تنفيذ المشاريع المخطط لها أو غير المكتملة للمشمولين بهذا القانون.

٧. -لا علاقة للمكتب باستعادة رفات المذكورين أعلاه المدفونين خارج القطر أو الحفاظ على قبورهم أو تحويل مساكنهم الى متاحف أو إقامة التماثيل أو تسمية الشوارع والساحات العامة بأسمائهم.

ثانياً:

١. يتمتع المشمول بخدمات هذا المكتب بكافة الحقوق والامتيازات المذكورة أعلاه اعتباراً من اللحظة التي يغلق فيها عينيه إغلاقاً نهائياً لا رجعة فيه وتتوقف فيه كل الفعاليات البيولوجية بالكامل (أي أنه لا يشمل الذين يمرون بحالات الموت السريري أو الغيبوبة التي لا شفاء منها أو

أية حالات أخرى لا يشملها التعريف القانوني للموت بحسب التشريعات العراقية)

٢. يفضل لأغراض المفاضلة في التمتع بالخدمات والحقوق والامتيازات التي يوفرها هذا القانون أن يتسم الموت بالنسبة للشباب بطابع رومانسي أو مؤثر أو مثير لوسائل الإعلام وأن يكون المشمول من المشردين أو المنفيين أو المنبوذين بالنسبة لكبار السن.

٣. على من يرى في نفسه أحقية التمتع بالخدمات التي يوفرها هذا القانون أن يقدم طلباً خطياً مطبوعاً بنسختين مع الوثائق والمستمسكات التالية:

أ. شهادة الجنسية وهوية الأحوال المدنية نسخة أصلية وبطاقة السكن.

ب. البطاقة التموينية أصلية ومستنسخة.

ت. تعهد خطي بالموت خلال المدة المنصوص عليها قانوناً.

ث. تأييد من أحد الأحزاب والكتل السياسية في البرلمان على أن لا يقل أعضاء الكتلة عن عشرين عضواً.

ج. تأييد من أقرب مقبرة يتضمن توفر مساحة مناسبة لدفن المومأ اليه.

ح. تأييد من الطبابة العدلية في باب المعظم بكون المتوفي متوفياً.

ثالثاً: أحكام تنظيمية عامة:

١. تشكل لجنة عليا من السادة أعضاء مجلس النواب تكلف بالمهمات التالية:
   أ) تسمية أعضاء المكتب.
   ب) وضع وإقرار النظام الداخلي للجنة العليا المذكورة في الفقرة ١ أعلاه.
   ت) تحديد الرواتب والمخصصات والامتيازات والرواتب التقاعدية لأعضاء اللجنة العليا المذكورة في الفقرة ٣/١ أعلاه.
   ث) تحديد الجهة المسؤولة عن المكتب (مجلس الوزراء، مجلس الرئاسة، رئاسة مجلس النواب، المجلس الأعلى للأمن الوطني، المحكمة العليا، مجلس محافظة الديوانية..الخ)

٢. تراعى في تشكيل اللجنة العليا المذكورة في الفقرة ثالثا/١ أعلاه ترتيبات المحاصصة الطائفية والحزبية.

٣. في حالة عدم توصل اللجنة العليا المذكورة في الفقرة ثالثا/١ أعلاه الى نتيجة خلال دورة انتخابية واحدة تشكل

لجنة عليا لاختيار لجنة ثانية جديدة على أن تنجز أعمالها خلال دورة انتخابية واحدة وعلى أن تـصرف لأعـضاء اللجنة العليا المذكورة في الفقرة ثالثا/١ رواتـب شـهرية مؤقتة لا تقل عن ١٥٠٠٠ (خمـسة عـشر الـف دولار أمريكي لا غير) مع بدلات سكن وطعام وحمايـة تحـدد بتشريع لاحق ولحين تشكيل اللجنة الثانيـة المنـصوص عليها في هذه الفقرة.

٤. في حالة عدم توصل أعضاء اللجنة الثانية الى اتفاق خلال المدة المذكورة أعلاه تحال القضية الى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

ويا محلى النصر بعون الله.

خبر عاجل: مؤتمر الوحدة الإسلامية يرجئ مشاوراته لتحديد يوم الوحدة الإسلامية

أخبرنا مصدرٌ موثوق مقرب من منابع الأنباء بحكم وظيفته (إذ كان يعمل سكرتيراً شخصياً لمدير مكتب معاون نائب قائم بأعمال مساعد وكيل وزارة غير سيادية سابق) بأن جمعاً غفيــراً مــن أصحاب العمائم و"الغترات" المحكمة بعقال مفــرد أو مــزدوج أو سوليتير قد هالتهم الهجمة الإمبريالية الصليبية الصهيونية الليبرالية العلمانية الاشتراكية الرأسمالية الشعوبية الهرطوقية الشرسة علــى الإسلام والمسلمين وما وصلت اليه حالة خير أمة أنزلت للناس من ضعف وتفكك وتناحر فقرروا (أعــزهم الله وأطــال ظلهــم) أن يجتمعوا في مؤتمر عام شامل حاشد عقد في لندن عاصمة الضباب من الأول وحتى السابع من شهر ذي القعدة المنصرم، وبرعايــة كريمة من السادة أصحاب الجلالة والمعــالي الملــوك والأمــراء والرؤساء العرب ورؤساء الاتحاد الأوربــي وكنــدا والولايــات المتحدة وتحت شعار "يا عمائم العالم اتحدوا" وذلــك مــن أجــل

التباحث والتداول حول كيفية إنقاذ الأمة الإسلامية مـن محنتهـا وتعزيز أواصر الوحدة والتلاحم بين أبنائها.

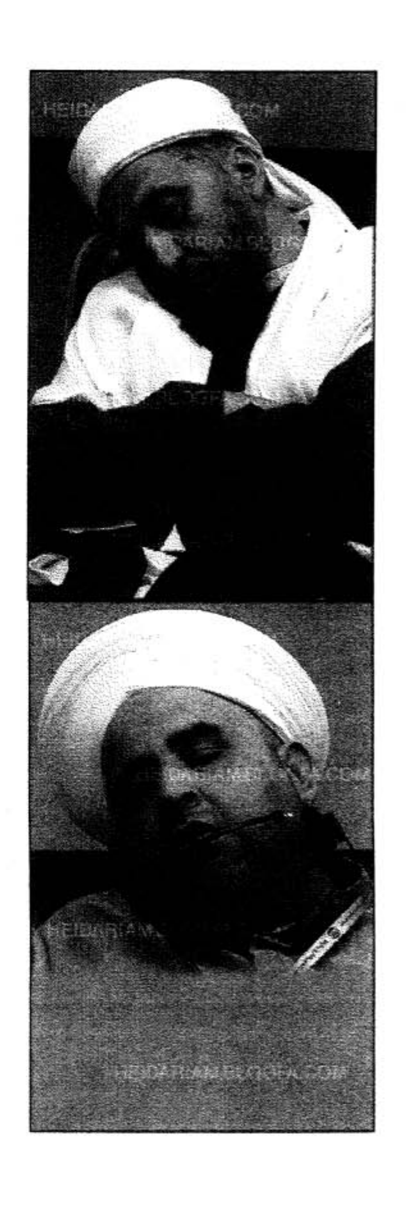
وقد بحث المؤتمر خلال أيامه ولياليه السبع المِلاح جملةً مـن القضايا والمواضيع وبالأخص المقترح الذي تقـدم بـه فـضيلة الشيخين "عبدو ميتلغابو" إمام وخطيب جامع "هنانو" في مقاطعـة "هناكو" في نيجيريا و "شكور شكري شكرها" إمام وخطيب مسجد قرية "الفيل الأبيض" في إقليم "عمبانو" جنوب شرق الهند والقاضي بتوحيد المذاهب الإسلامية في مذهب واحد يعيـد للأمـة هيبتهـا ومنعتها. وقد أقر المؤتمرون بإجماع الصاحين مـن الحاضـرين تأييد هذا المقترح وتشكيل لجنة لبحث تفاصـيل تنفيـذه. ويقـول المصدر نفسه (والذي شارك في المؤتمر بحكم منصبه كما قلنا) إن أعضاء اللجنة اختلفوا اختلافا شديدا وصل الـى حـد الـضرب بالـ... على تسمية المذهب الجديد وهل سيسمى "المذهب السنعي" كما قال الأعضاء السنة باعتبار وجوب تقدم السنة علـى الـشيعة بسبب الأغلبية العددية المطلقة أو "المذهب الـشيني" كمـا دعـا أعضاء اللجنة من الشيعة باعتبار القرابة والولاء الـى آل بيـت الرسول الكريم (ص). وتوصلت اللجنة في الختـام الـى إحالـة القضية الى المؤتمر القادم المزمع إقامته فـي بـاريس عاصـمة العطور. واحتفالاً بهذه المناسبة العظيمة قرر المؤتمرون إعـلان هذا اليوم الأغر يوماً عالمياً للوحدة الإسلامية وذلك طبعـاً بعـد

الاتفاق على تحديد تاريخه وفقاً للتقويم الهجري المبـــارك حيـــث لاحظ المؤتمرون الاختلاف في تحديد هذا اليوم بسبب التباين في تحديد الرؤية الشرعية للشهر الكريم. هذا وقد علمت مصادرنا أن الحكومة العراقية قررت أن يكون هذا اليوم إضافة الى اليــومين السابقين واليومين اللاحقين له عطلة رسمية حلا لهــذا الإشــكال إضافة الى إعلان حظر سير المركبات وإغلاق المطارات والنقاط الحدودية لمدة شهرين.

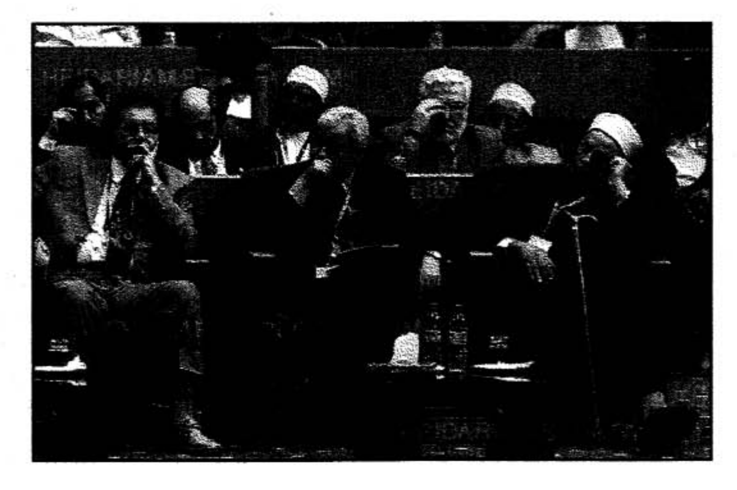
أعاده الله علينا باليمن والبركة وسدد خطـــى أوليـــاء أمورنـــا وعلمائنا لما فيه خير الأمة وصلاحها.

ملحق: صور لجانب من الحاضرين









ثلاث عشرة نصيحة عملية كي تكون عراقياً جيداً

كي تكونَ عراقياً جيداً .. عراقياً حقيقياً
أعني كي تعيش في العراق أطول مدةٍ ممكنةٍ
تحتاجُ بعضَ المهارات
وحزمةً من النصائح:

١. لا تنظرْ في عيون الناس .. الغرباء منهم خصوصاً، فقد يظنون بك الظنون.
٢. تعلّم كيف تختار الأقفال: أقفالٌ من كل الحجوم، أقفال لكل الأشياء.
٣. لا تشتم ملكاً أو رئيساً، حتى لو كان ميتاً، أو مجردَ ملك مقبل، أو زعيم محتمل.
٤. حين تقود مركبةً أو دراجةً أو حماراً عليك أن تفسح المجال فوراً: للدبابات، عربات الهمر، الملثمين، أي سيارة ذات صندوق خلفي كبير، بيكبات الشرطة، مواكب اللاطمين، الأعراب.. الخ. أفسح لهم الطريق سريعاً، حتى لو اضطررت الى الانبطاح في الطين.
٥. لا تثرثر في الهاتف، قد يسمعك أحدهم بالصدفة.

٦. إجمع ما يكفي من المال .. احتياطـــاً .. لحـــين اختطـــاف أطفالك. ومن الأفضل إخبار زوجتك بمكانه لكي تتـــصرف عندما تكون أنتَ الشخص المختطَف.

٧. جدِّدْ وصيتكَ كل صباح، وكل مساء. أضف إليها كـــل مـــا يستجدّ ببالك، فأنت لا تدري متى: طاخ .. طاخ .. طاخ.

٨. إذا كنتَ من المتخلفين الذين يقرأوون ويكتبون، لفَّ جريدتكَ أو مجلتك أو كتابك بشكل جيدً، لا تدع عناوينهـــا ظـــاهرةً.. الأفضل أن تشتريها بسرعة وتطويهـــا ثـــم تخبئهـــا تحـــت بلوزتك.. بالمناسبة: ماذا تفعل بالجرائد؟ يمكنك مسح النوافذ بالقماش.

٩. تظاهر بالصلاة بطريقتين على الأقل.. أنت لا تعرف أفـــراد المفرزة المقبلة.

١٠.سمِّ أطفالكَ بأسماء محايدة لا توحي بشيء محدد ؛ أولادنـــا أكبادنا، تمشي على الأرض، وتركب السيارات، وتتعـــرض للتفتيش المفاجئ.

١١.مهم جداً: تجنّب الأماكن المزدحمة، وكذلك الأماكن الخالية، والأماكن المغلقة، وكذلك الأماكن المفتوحة.. لا تسألني كيف.

١٢.فليكن هاتفك المحمول من النوع الرخيص كـــي لا تمـــوت بسببه، ولا تحّمله بالكثير من العناوين والصور الشخـــصية والنغمات المثيرة للريبة: نغمة تايتانك تكفي.

١٣.أدفن موتاك في مقبرة قريبة، وبسرعة، بأقـــل التفاصـــيل. وأوصِ أهلك أن يفعلوا الشيء نفسه عند موتك. المقابر أماكن خطرة.

هذه نصائحي لك فاحفظها ... كي تكون عراقياً جيداً .. أعني كي تعيش في العراق ... أعني كي تموت فيه!

٢٠٠٦/٣/١٤

طابخو التنانين

تقول الحكاية الشعبية الصينية أن "لو يو" (الاسم من عندي طبعاً لأنني نسيت الاسم الحقيقي) شد الرحال الى مقاطعة "تسشو مي" (وهذا أيضاً من عندي) الواقعة وراء الجبال السبعة ليدرس فن طبخ التنانين.

عشرون سنة مضت قبل أن يعود الى مدينته مبيض القذال وقد اكتست عيناه نظرات الحكمة العميقة والفهم الواسع. استقبله الأهل بالفرح والزغاريد وزاره القاصي والداني من الأقرباء والمعارف والجيران وكبار التجار والوزراء والملاكين وطلاب العلم والشعراء والرسامين حتى أن رئيس البلاط الإمبراطوري قد دعاه بنفسه الى زيارة القصر المقدس، كيف لا وهذا "لو يو" يعود وفي "عليجته" شهادة "هاطولها" تؤيد حصوله على أعلى درجة علمية في العالم في فنون طبخ التنين.

بعد أن هدأت الأمور قليلا اختلى الوالد العجوز بابنه العالم الكبير.

-والآن يا "لو يو" ماذا ستفعل بشهادتك.

-لم أفهم أيها الأب الطيب.

-ماذا ستفعل بها؟ ماذا ستعمل؟ كيف تفيد نفسك ومواطنيك بما تعلمت؟

-لا شيء أيها العجوز الطيب.

-كيف هذا؟ ألست أعظم من يجيد طبخ التنين في طول الأرض وعرضها؟

-نعم أيها العجوز اللحوح لكن هناك مشكلة صغيرة واحدة.

-؟؟

-لا وجود للتنين في هذا العالم!

أيها الأحبة .. لقد جمعت في السنوات الأخيرة ما يملأ "كنتورا بسبعة أبواب" من دراسات ومقالات وتحليلات عن الحداثة وما بعد الحداثة وما بعد بعد الحداثة ...

حسناً؟!

عن التمر "النكسان" ومقياس تلطّخ الإنسان

يقال –والعهدة على الراوي– أن جماعة من أصحاب البساتين تركوا عبداً لهم في صريفة اتخذوها مخزنا للتمر في بستان بعيد عن الطريق (أي بالمنگطعة بالعربي الفصيح) ثم اضطروا لأسباب لا يعرفها إلا الراسخون في العلم الى تركه ليبيت ليلته وحيداً في ذلك المخزن المخيف. ولأن صاحبنا كان معروفاً –من قبل ذلك– بالجبن وخوَر الفؤاد فقد بقيت تلك الليلة الليلاء محفورة في ذاكرته وذاكرة أبنائه وأحفاده الى يوم يُنفَخ في الصُور. ولكن ما لنا وذاكرته وذاكرة نسله العتيد!؟

المهم في الحكاية أن الخوف فعل فِعله في الرجل حتى أحس بانتفاخ مثانته الى درجة لا تطاق (وهذه حالةٌ فسيولوجية لا غبار فيها عليه) أي أنه (وبالعربي الفصيح مرة ثانية) احتقن حتى صار يتلوى ويدور على نفسه وهو بين نارين: أن يخرج من الصريفة المهجورة الى الليل البهيم وأصوات الكلاب وبنات آوى وظلال النخيل المستطيلة كالغيلان، أو أن يصبر حتى ينبلج الصباح. لكن صاحبنا قرر –في التفاتةٍ ذكيةٍ– أن يسلك طريقا ثالثةً، فارتأى – مخالفاً القاعدة الشرعية القائلة بأن لا رأي لحاقنٍ– أن يقضي

حاجته حيث هو دون أن يبالي بأن يلوث المكان أو التمر المخزون فيه!!

ولأن الليل كان في أوله فإن صاحبنا لم يفكر -وهو يقدم على هذا القرار التاريخي- في عواقب فعلته هذه وفي ساعات الليل الطويلة القادمة. المهم أن صاحبنا قد أحس بالجوع بعد سويعات (أو دويدقات) من ذلك ولم يجد ما يسد الرمق في هذا المخزن المهجور غير كومة للتمر الذي كان -والحق يقال- يعاني من الفساد حتى قبل أن يزيدها تلوثاً وفساداً. وأعمل السيد بريمر (عفواً هذه زلّة لسان) أعني بطل حكايتنا فِكرَه حتى توصل الى أن جميع حبات التمر لم تكن متساوية في درجة تلوثها بل إن بعضاً منها لم يكن ملوثاً بالأصل!

واستناداً على هذه النظرية أمسك العبد بفردة تمر ونفخ عليها وتأملها ملياً -بقدر ما سمحت به الإضاءة الخافتة للمشهد- ثم قال بصوت عال:

أنا يُزَن هازي تمره ما نكسانة!

ولم ينتظر صاحبنا كثيراً فألقى التمرة في فمه ثم رمى النواة في الجانب الآخر من الصريفة وتنفس الصعداء لأنه تغلب على تردده.

و"شجعه" ذلك على مد يده الى تمرةٍ أخرى فنفخ عليها ثم قال بصوتٍ مرتفع -شأن كل خائف يسعى الى خداع نفسه:

-يمكن هازي أيزاً مو نكسانة!

وألحقها بالتمرة الأولى وأخرج النواة مثل آلةٍ لتصريف النقود.

ولا أطيل عليكم الحكاية: حين جاء الصباح لم يكن قد بقي من كومة التمر غير حفنةٍ من النوى لأنه أتى على كل التمرات بغض النظر عن كونها "نكسانة" أو "مو نكسانة"

حكايتي هذه لا علاقة لها بالطبع بالمناقشات الجارية حول الفرق بين تعديل الاجتثات واجتثاث التعديل فأنا لا أفهم شيئاً في السياسة كما إنها حدثت قبل زمن طويلٍ طويلٍ من انهماك علمائنا المبجلين في اختراع مقياسٍ الكتروني ذري لقياس درجة تلطخ الأيدي -ناهيك عن الألسن والأقلام- بدماء سكان خرابستان... من تقدَّمَ منهم ومن تأخر. لكنني أعرف على وجه اليقين أن شخصاً آخر يتمتع بأقل قدرٍ من الشجاعة أو الحصافة كان سيختار واحداً من أمرين:

أن يصبر على جوعه حتى ينبلج الصباح ليخرج في طلب رزقه النظيف الشريف بعد أن يال على التمر الذي -أؤكد من جديد- كان متعفنا حتى قبل أن يتبول عليه...

أو أن يخرج في جنح الليل متغلباً على خوفه من عفاريته الموهومة ولا يبول على التمر من الأساس ثم يعود ليقنع نفسه: هذي نكسانة ... وهذي مو نكسانة!!

١-٦-٢٠٠٧

سيادة العميد ... ضايج

سيادة العميد ضايج ..

سيادته ممتعض، منزعج، منعقج ..

سيادته منفعل ويعاني من الأرق والكوابيس وقلـــة الـــشهية .. سيادته قل وزنه كيلوغراما ونصف منذ التاسع من نيسان ٢٠٠٣. ورغم أن نقصان الوزن هذا كان سيعد أمرا مفيدا بالنسبة لفحص اللياقة السنوي للضباط لو كانت الأمور بقيت على حالها فإنه – أي النقصان– ينم في هذه الظروف الجديدة على القلـــق والانزعـــاج وفقدان الراحة والاطمئنان.

نسأله : لماذا أنت ضايج يا سيادة العميد؟ لماذا تكثر من التأفف والحوقلة والحسبلة؟ ولماذا تتعارك مع زوجتك وتضرب أطفالـــك لأتفه الأسباب؟

سيقول لك إنه ضايج من العراقيين وأفعالهم.

ونسأله لماذا أنت ضايج من العراقيين وأفعالهم؟

سيجيبك لأنهم خونة وحرامية وهمج.

ستفهم منه بين التأفف والحوقلة والحسبلة انـــه منـــزعج مـــن الأكراد –الذين طلعوا رؤوسهم– ومن الـــشيعة –الـــذين طلعـــت عيونهم– ومن السنة –الذين نسوا الدعاء للـــرئيس القائـــد ســـليل

الدوحة النبوية. سيقول إنه منزعج من هذا العــدد الكبيــر مــن الأحزاب الخائنة والجرائد المغرضــة التــي ظهــرت فجــأة... (إسلاميين، شيوعيين، كردستانيين، ديمقراطيين، وطنيين، أحــرار .. ما أدري شنو .. أف!!) سيقول إنه يشعر بالامتعاض من حالة الفوضى والتسيب التي تمر بالبلاد (وسيقول لك بكل تأكيد: يا أخي إحنه مو أوادم! إحنه مو مال ديمقراطية!) وأخيرا ولــيس آخــرا سيقول لك إنه ضايج من إقبال العراقيين علــى شــراء ونــصب الدشات التي تسبب الفساد والانحلال.

وحين تقاطعه لتقول له إنه -أي السيد العميد- كان ينصب سراً واحدا من هذه الدشات منذ سنتين بعد أن تبرع به مشكورا أحــد الجنود الأغنياء من مواليد ١٩٦٢ أو ١٩٦٤ نظير إعفائــه مــن شهري خدمة الاحتياط، سيجيبك على الفــور وفــي شــيء مــن العصبية: يا أخي آني غير شكل، آني عميد وعضو شــعبة! لعــد تقبل واحد حافي من أهل الـــ .. يصير عنده دش؟!

زعلان سيادة العميد.. الأرض تضيق به.. ويتمنى لو نام ليلته ليصحو وقد رأى أن كل العراقيين ماتوا بالسكتة القلبية!

صحيح أن مظاهر الفوضى والانفلات تقلق راحــة العــراقيين وتسبب لهم كثيرا من الحزن والتوتر يشترك في ذلك الجميع سواء كانوا من مستوى السيد العميد ورفاقه أو من مــستوى الموظــف البسيط أو بائع البيض والبيبسي، لكن للسيد العميد أسبابه الخاصة

للقلق والحزن والتوتر بعضها يعترف بها مع نفسه وبعضها كامن في اللاشعور كما يقول عمنا فرويد طيب الله ثراه:

فلقد حلم السيد العميد قبل يومين بأن الزمن عاد به الى الوراء وبأنه يقف مترنحا في سوبر ماركت كبير في الجهراء وهو يحمل بيده اليسرى أربعة من أجهزة الفديو من نوع هيتاشي وبيده اليسرى مكيف هواء نوع سانيو (إثنين طن أبو العين السحرية) ويضع في جيب سرواله الأيمن ثلاث تكات روثمن وفي الجيب الأيمن سيت ملاعق وسكاكين مذهبة وقد فتح أزرار قميصة ليحشر فيه أربع سبائك ذهبية أخرجها من خزانة زجاجية كسرها له جند الحق علقت فوقها يافطة مضيئة كتب عليها (اشتري واربحي.. جوائز مسابقة محلاتنا لشهر سبتمبر ١٩٩٠) وكان السيد العميد غاضبا في الحلم لأن عينه وقعت على غرفة نوم فخمة لا يعرف كيف يضعها فوق رأسه فكان يصيح بالجنود:

-شيل يا إبن الـ .. ولك أثول شيلها!.

حينها هزته زوجته هزا عنيفا ليستيقظ من كابوسه وناولته متأففة كوبا من الماء وصاحت به:

-كم مرة قلت لك لا تتگل بالعشا؟

ثم أدارت له ظهرها وهي تتمتم:

-يمكن تخبّل الرجال!

وعندما استغرق السيد العميد في نومه مرة أخرى عاد به الزمن هذه المرة الى أواخر عام ١٩٨٨ ووجد نفسه في جامع صغير في إحدى قرى كردستان النائية. كان الجامع خاليا إلا من سجادتين رثتين فصاح السيد العميد في جنوده المساكين:

-لفّوها .. شيلوها .. خلوها بسيارتي! وحين قال له نائب الضابط العجوز الذي يدعوه الجنود سيد فرحان:

-سيدي هذه سجادات قديمة لا نفع لها. وبعدين هذا حرام، هذا بيت الله.

-إخرس يا كلب. ألعن أبوك لأبو.....

لكن الزوجة لم توقظه هذه المرة واكتفت بأن قالت:

-خبال!

ليس هذا كل شيء، فصباح أمس ذهب السيد العميد الى موقع بناء بيته الجديد الفخم الذي توقف عن متابعته منذ عام وأكثر وأزعجه تذكّر أن الجنود الذين كانوا قد "تطوعوا" للعمل فيه قد اختفوا تماما والأنكى من ذلك أنهم حملوا معهم كل أدوات البناء وجميع الحنفيات والمغاسل والتأسيسات الكهربائية!

يومها سب السيد العميد وشتم، وارتفع ضغطه واحمر وجهه، لكنه في النهاية اضطر الى الجلوس على كومة من الرمل وهو يمسح العرق ويردد:

-بسيطة يا كلاب! آني أعلمكم يا خونة يا حرامية!

إيه يا سيادة العميد. كان الله في العون! ماذا تتحمل من بلايا ورزايا!؟

كيف تتخلص مثلا من الورطة التي أوقعت نفسك فيها حين خطبت لولدك الوحيد المحروسة "قادسية" إبنة "الرفيق أبو عروبة" عضو قيادة الفرع وفرضتها عليه فرضا لمجرد أنها ابنة أخت "الرفيق عضو القيادة أبو رسالة" ولم يخطر ببالك أنك ستنام وتصحو لتجد أن "الرفيق أبو عروبة" نزع الزيتوني ولبس الدشداشة وهرب الى بساتين أعمامه وإن "الرفيق أبو رسالة" صار أضحوكة بعد أن طبعوا صورته على ورقة "ماجة".

كيف تنسى الوقاحة التي خاطبك بها صباغ السيارات الحقير عندما ساومته على أجرة صبغ سيارة "الديل قمارة" العسكرية باللون الأبيض وتغيير أرقامها الى أرقام مدنية عندما مد يده نحوك وصاح في جسارة:

-جيب يا معود. هي السيارة مال أبوك؟!

رحمتك يا إلهي! ماذا يتحمل السيد العميد!؟ من يدخل مع ابنته المدللة الى قاعة الامتحان ليملي عليها الأجوبة خصوصا أنها هذه السنة في البكالوريا؟ من يعوّض عليه المكرمة التي ضاعت عليه عندما مر عيد ميلاد القائد الحبيب دون احتفالات؟ من يزرع له الدوانم العشرين على نهر ديالى خصوصا بعد أن سمع بأن أهلها المسفرين قد عادوا وسيطالبون بها؟

ماذا؟ وكيف؟ ومن؟ ومتى؟ و.. و..و..

أسئلة حائرة تدور في رأس العميد وتقض مضجعه.

لكن السيد العميد ليس من "ذولاك الناس" . إن له عقــلا يــزن بلداً. وهو سرعان ما يتكيف مع هذا الوضع الجديد. اصبر سنة أو سنتين حتى تجده قد عاد الى حالته الطبيعية أو أكثر.

ماذا سيفعل السيد العميد؟

في البدء سيحني السيد العميد رأسه للعاصفة. سيتعلم التواضع والتسليم على الرائح والغادي وسيداوم على الذهاب الى الجــامع وفي يده مسبحة طويلة. سوف يسب صدام علنا ويبحث عن فرصة لتأسيس علاقة من نوع ما مع بعض جنود التحالف لكنه لا ينسى مغازلة من تبقى من رفاق العقيدة القدماء وتمني العمــر المديــد للرئيس "المجاهد.. كل شي يصير. يمكن يرجع".

سينتظر السيد العميد حتى يستقر السوق فيخرج بعض أموالــه المنقولة "الكونيتين من فئة الميتين وخمسين، كارتونة مــن فئــة العشرة آلاف، كارتونة أصغر فلوس سويسرية وكلها قد تحولــت بنعمة الله الى خمس وعشرينات ألف حمراء جديدة، إضافة الـــى عشر دفاتر دولارات، وبعض السبائك الذهبية ... الــخ" وبهــذه الأموال سيفتتح مشروعا تجاريا مربحا يصعد به فــوق النخـــل. وسيراقب السيد العميد عن بعد حال السياسة وأهلها وعندما يحين

الوقت المناسب سيعرف كيف يضع أوراقه مع الطــرف الــرابح وعندها سيفرك أنوف كل أعدائه وحاسديه.

إذن يا سيادة العميد .. أرجوك أن لا تنزعج ..ولا تمتعض .. ولا تضوج ..

قليلا من الصبر والدهاء يا سيادة العميد. هذه حال الدنيا.. كل شيء صعب في أوله..

سي يو ليتر يا سيادة العميد!

٢٠٠٤

الاعتراف الأخير للقائد الضرورة

أنا الذي لم أخطئ في حياتي
عندي الساعة من الجرأة وفائض الوقت
ما يسمح لي بإعلان بعضٍ منها:
نعم فلقد أخطأت .. أخطأت كثيراً..
أخطأت حين سمحت لهؤلاء القرود بأن يتناسلوا بحرية.

وأخطأت حين سمحت للأطفال بتعلم النطق دون موافقات أمنية وإذن شخصي مني.

أخطأت لأني لم أنسف مقر اليونسيف بأربعة أطنان من مادة TNT شديدة الانفجار.

وأخطأت لأني لم آمر بإعدام نصير الجادرجي وجلال الطالباني وحميد مجيد وألفريد سمعان وفؤاد سالم ومحمد بحر العلوم وخسرو الجاف وشميم رسام وعبد الهادي الخليلي ويونادم كنا وكاظم الحجاج وعمو بابا وهاشم سلمان وابراهيم الجعفري وابتسام عبد الله وأحمد خلف وخليل شوقي ومظفر النواب وكاظم الساهر وحبيب جعفر ويوسف العاني وكزار حنتوش وعبد الستار ناصر ومحي الدين زنكنه وعزيز الحاج وحسين علي وعلي حسين

ومحمد جاسم وجاسم محمد وكل المواطنين الذين تبـدأ أسـماؤهم بالحروف التالية حصراً:

الألف، الباء، التاء، الثاء، الجيم، الحاء، الخاء، الدال، الـذال، الراء، الزاء، السين، الشين، الصاد (نعم الصاد)، الضاد، الطـاء، الظاء، العين، الغين، الفاء، القاف، الكاف، اللام، الميم، النـون، الهاء، الواو، الياء.

أخطأت كذلك حين صدقت رعد بندر وعبد الرزاق عبد الواحد وقاسم سلطان.

وأخطأت لأني لم أدفن شبه جزيرة الكرادة تحت رمـال نهـر دجلة.

وأخطأت لأني أبقيت على مآذنة جامع الخلاني قـرب جسر السنك بين مدخل نفق التحرير وسوق العوينة وعلى أبراج كنيسة الأرمن قرب ساحة الطيران مقابل مكتبة الأورفلي.

أخطأت لأني لم أخبئ تحت كل تمثـال مـن تمـاثيلي قنبلـة جرثومية صغيرة تنفجر بمجرد محاولة تحريكه من قاعدته.

وأخطأت لأني لم أربط الى مؤخرة كل واحـد منكم كـشافا الكترونيا مربوطا الى الأقمار الصناعية.

....

...

ولكنني يا شعب الأماجد

يا شعب القرود

أيها الأبطال الجبناء

أيها الخونة الأباة

أعدكم بإصلاح كل شيء حين أعود إليكم قريبا

ساعتها سوف أطركم طرا وسأسلخ جلـودكم وسـأبني مـن جماجمكم القذرة هرماً يخترق طبقة الأوزون ..

فقط إنتظروا وسترون ..

...

...

آه .. لقد نسيت ... عفيـــه!

٢٠٠٣/٩/٩

فرسان الثقافة الفاشية ..
خرجوا من الباب، وعادوا من الشباك!

المتأمل لحال الصحافة العراقية ولصفحاتها الأدبية على وجه التخصيص سيصاب بالحيرة والذهول، وسيضرب كفاً بكف، ثم سيحتسب، ثم يحوقل، ثم يتعوذ من الشيطان، ثم يردد بلسان إخوتنا المصريين: صحيح .. اللّي اختشوا ماتوا!

لمحة من الماضي

في منتصف التسعينات من القرن المنصرم ساقني حسن الطالع الى التعرف على أحد القامات المنتصبة الرائعة في بساتين الأدب العراقي الحديث وأعني به أستاذي الكبير "ألفريد سمعان".

وكنت وأصدقائي نتساءل قبل ذلك عن مصير هذا الرجل الذي غابت أخباره مع صعود نجم "القائد الضرورة" وأفول شمس الثقافة العراقية الملتزمة الأصيلة.. كنا نتساءل عن الرجل: هل مات؟ هل هاجر؟ هل أعدم؟ هل سكت الى الأبد؟

كانت هذه الاحتمالات هي الخيارات الأكثر ترجيحاً في ذلك الوقت لمعرفة مصير كل من لم يجند قلمه في فيلق لطيف نصيف

جاسم ويوسف حمادي وهاني وهيب ومن لف لفهم، ذلك الفيلق الذي رفع شعاراً واحدا وإن اختلفت كلماته: الثقافة في خدمة الإعلام.. والإعلام في خدمة صدام!

وصرت من يومها كلما جلست إليه في مكتبه البسيط الأنيق بين رفوف الكتب وصور الجواهري والسياب وغوركي وصوت فيروز أشعر أن قدراً كبيراً من كرامتي وثقتي بنفسي قد عاد إليّ وأن هناك قبالة فيلق "الوزير الغجري" على حد وصف أحد الأساتذة فيالق من مثقفين نجباء رائعين صمدوا وجاعوا وشقوا وغامروا بأرواحهم كي لا يسقطوا في الهاوية المخزية.

كان هذا هو موقفهم المبدئي –الستراتيجي كما يقول أهل السياسة والحرب. أما "التكتيكات" التي التزموها لتجسيد موقفهم هذا فقد تنوعت وتشعبت:

فمنهم من آثر طرق "النشر الشفاهي" أي قراءة ما تجود به قرائحهم على ثلة صغيرة من الأصدقاء الموثوقين المؤتمنين.

ومنهم من اتبع الطريقة المعروفة بطريقة "إميلي ديكنسون" الشاعرة الأمريكية الشهيرة في القرن التاسع عشر، وهي الاستنساخ اليدوي وتوزيع العمل الأدبي على أكبر عدد من القراء عن طريق الرسائل أو يداً بيد مع ملاحظة "التطوير" الذي أدخل على هذه الطريقة في بلادنا حين كان عدد من هذه الأعمال لا يرد فيها اسم الكاتب أو الشاعر تحسباً وخشية مما لا تحمد عقباه!

ومنهم من سرّب أعماله كي تنشر خارج القطر أو في كردستان المحررة تحت أسماء مستعارة كما فعل أستاذنا "محي الدين زنكنه".

ومنهم من لجأ الى الغموض والتورية أو التلاعب بالألفاظ أو الدعاية والسخرية ليمرر ما شاء من أفكار "معارضة" معتمدا على الغباء "المتميز" للرفاق أعضاء المكتب المهني أو مكتب الثقافة والإعلام كما فعل –على سبيل المثال لا الحصر– الفيلسوف الأستاذ "مدني صالح".

ومنهم من آثر الاشتغال بالبحث الأكاديمي الرصين أو النقد الموضوعي الملتزم والالتفاف ببراعة حول ألغام أولئك المسؤولين كما فعلت النخبة الطيبة المعطاء من أكاديميينا الأجلاء مثل الطيب الذكر الدكتور "علي جواد الطاهر" وأستاذنا الدكتور "عناد غزوان" والمرحوم الدكتور "نوري جعفر" وغيرهم الكثير ممن لا يتسع المجال لذكرهم.

وأعيد هنا أن هذا كان دأب أساتذتنا وشيوخنا الأعلام الذين أخذوا حظهم من الشهرة والتميز قبل صعود الفاشية ممن لم يغادروا السجن العراقي الكبير –عجزاً منهم أو اختياراً– من جهة، ولم يسقطوا في الفخ ولم يلوثوا تاريخهم الناصع من جهة ثانية فخرجوا من المحنة بيض الوجوه والأيدي بقامات أعلى وأعلى.

كان النظام -وزبانيته الإعلامية الوقحة- يقف لهؤلاء بالمرصاد ويتحملهم كمن يتحمل الداء العضال وينتظر منهم الـزلات ويعـد سقوط أحدهم في جوق التطبيل والتزمير نصراً يستحق الاحتفـال كما فعل بالشاعر العراقي يوسف الصائغ حين فشل فـي اختبـار التحمل والصبر فعرضته شاشات التلفاز وهو يعلن التوبة والنـدم ليكون ذلك اليوم لحظة حزن كبيرة حفـرت عميقـا فـي قلـوب المبدعين العراقيين وقرّائهم ومنهم كاتب هذه السطور.

أما الأدباء الشباب

أعني الذين "كانوا" شباباً ممن تكاملت أدواتهم الفكرية والفنيـة ونضجت مع بداية الثمانينات فقد كانوا منذ البداية أمام خيـارات أهونها أشد على المرء من خرط القتاد: الغربة، الانكفاء واليأس، الغموض المفرط، السقوط العبثيـة.... أو البقـاء فـي الظـل المهجور.

كان الأمر بالنسبة اليهم لعبة خطيرة ومغامرة مخيفة. ولـذلك لجئوا هم أيضاً الى خليط من الأسـاليب والتكتيكـات لإيـصال أصواتهم وانتزاع الاعتراف بمواهبهم ومن تلك الأسـاليب كتـب الاستنساخ التي ظهرت بالعشرات أو المئـات وخـصوصاً فـي السنوات الأخيرة، وهي اختراع عراقي عتيـد يـستحق الـدرس والتفحص والتوثيق!

وماذا عن الصحافة الأدبية الرسمية

كانت أبواب الصحافة الأدبية الرسمية موصدة بـالطبع أمـام أولئك وهؤلاء، ومشرعة على مصراعيها لشعراء المديح القروسطي والتذلل والمكافآت السخية والمناسبات "الوطنية القومية" وخصوصاً عيد ميلاد سيادته الميمون، ولكتاب قصةٍ ونقادٍ عنتريين يستلهمون من فكر "سيادته" وثقافته الرفيعة (تقرأ بنقطة أو نقطتين) حتى وصل الأمر بأحدهم الى تشبيه مهزلة زبيبة والملك بملحمة كلكامش-مفخرة آداب العالم القديم، بل وجعلها أرفع مقاما!

كيف لا وقد وقف على هذه الأبواب حجاب احترفوا فنون النفاق والدجل والمحسوبية والرشوة وتلميع أكتاف (ولا أقول شيئاً آخر) المهيب الركن وابنه الأستاذ الفاضل ومهرجه فلان الفلاني وطباله علان العلاني..الخ. أما ما كان يخلص من غرابيل أولئك الحجاب السلطانيين ويجد طريقه الى النشر مما لا ينتمي الى هذه الفئات فكان قصائد وقصص غامضة مرتبكة لا تكاد تفقه منها شيئاً تخال -لولا حروفها العربية- أنها كتبت بلغة أخرى ولا تثير في نفسك غير الملل والتثاؤب يمكنك قراءتها من الأعلى للأسفل وبالعكس ومقالات نقدية مقطوعة الأوصال عمل بها سيف المحرر والرقيب حذفاً وتعديلاً وترقيعاً حتى اخلقت أو صارت أشبه

بالأحجيات. فإذا أغلقت عليك جملةٌ أو صورة ما، صار ينبغي عليك سؤال الكاتب عما عناه بذلك. فإذا كنت موضعاً لثقته أوضح لك المغزى المعمّى وأعطاك كلمة السر (password) كما يقول أهل الكومبيوتر، وإلا فاذهب أنت وربك يا موسى! هذا إذا كنت من متوسطي الثقافة والعلم كحال العبد الفقير، أما إذا كنت من أهل الفطنة الخارقة للمألوف والألمعية الخارجة عن الحدود فأنت الفائز المحظوظ!

بعيداً عن الإطلاق

ولأني أمقت -بطبيعتي- إرخاء العنان للأحكام المطلقة واستخدام كلمات مثل "كل" و"جميع" و"حتما" و"دون أدنى شك" ..الخ، فإني لا أدعي أن هذا كان حال كل الصحف في جميع الأوقات ولا حال كل المثقفين الذين ينشرون فيها دون استثناء، لكنه حال أكثر الصحف في أكثر الأوقات وأكثر الكتاب في أكثر الأوقات، إلا نخبة قليلة شجاعة ذكية يحتفظ أغلب أفرادها بقصص وحكايات لا تنتهي عن معاناتهم مع فرمانات المنع والحجب والقص والتبتير والتقزيم التي حولت الصحافة الأدبية الى مستنقع راكد ضحل يعج بالديدان والعقارب بدلاً من الواحة الغناء الرائقة العذبة التي كانت عليه حتى صعود الفاشية. فلأولئك النفر الصابر الشجاع ألف تحية وتحية!

عود على بدء

واليوم .. ما هي الصورة الجديدة للصحافة الأدبية الجديدة في العراق الجديد؟! وهل هي حقا جديدة في كل خطوطها وألوانها؟ أم أن هناك خطوطاً وألوانا وضربات فرشاة قبيحة كريهة تسللت في الظلام الى هذه اللوحة الجميلة الواعدة التي قامت من بين الأنقاض والخرائب ودخان الحروب والهزائم؟ ألم يعد الكثير من سماسرة الثقافة-الإعلامية الى تصدر الصفحات الثقافية، وإغراقها بـ"إبداعاتهم" الغثة التي لم تبتعد شكلاً ومضموناً عن صولاتهم وجولاتهم القديمة بعد إعادة طلائها، وتقريب من شاؤوا من محسوبيهم القدامى بغية إبعاد الأصوات الملتزمة الأصيلة التي حرمت زمنا طويلاً من متنفس حر ديمقراطي يستحقونه عن جدارة؟

قد يكون من بيننا من يتبنى نظرية العفو عما سلف على طريقة الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم.

قد يكون من بيننا من هو مستعد لإسقاط حقه القديم خدمة للمصالحة الوطنية ولسان حاله يقول:

هنيئاً مريئا غير داءٍ مخامرٍ لعزةَ من أعراضنا ما استحلّتِ

ولكن أيها السادة . يا فرسان المؤتمرات القومية والقطرية. يا صناديد الإيفادات والمكافآت. أبعد أن سكتنا دهراً تريدون أن تلووا أحناكنا لننطق كفرا؟ أبعد أن كنا لا نعرف من وزارة الإعلام غير طابقها التاسع حيث دائرة رقابة المطبوعات بينما تستطيعون الوصول مغمضي الأعين الى حيث دائرة الحسابات تحتها بطابق أو طابقين –لا أذكر بالتحديد لأني لم أزرها غير مرتين استجابة الى طلب بعض الأصدقاء سامحهم الله حين كانوا يوصونني بالمرور عليها والسؤال عن مصير مكافآتهم على قصائد يوم الزحف العظيم أو البيعة الميمونة أو طهور الأحفاد!

أبعد أن كنا لا نحفظ من وجوه موظفيها غير وجه "الحجية فردوس" الطيبة التي تتسلم نتاجاتنا التي نرغب بنشرها على حسابنا وحساب قوت أطفالنا وتقول لنا "عد بعد شهر أو شهرين ريثما يظهر تقرير الرقيب"، في الوقت الذي كنتم لا تفوتون فرصة إلا وقفزتم أمام وجوه الديناصورات المتنفذة وقد رسمتم ابتسامة متملقة متذلة و .. إشلونك أستاذ؟!

أبعد هذا وغيره مما يطول به الحديث تريدون أن تظلوا الشابندرات الحاكمين بأمركم في سوح (سيقرأونها سوق) الثقافة العراقية؟

وأنتم أيها السادة رؤساء التحرير وأصحاب الإمتياز والمديرين المسؤولين. إحذروا هؤلاء. وتذكروا ما قاله الجواهري العظيم

للزعيم الراحل مستنكراً ومحذراً "يا سيادة الزعيم .. أثورة بشرطة نوري السعيد؟!"

إنها ليست دعوة الى محنة كمحنة المعتزلة، أو محاكم تفتيش بابوية، أو حملات تطهير ستالينية. فلا نملك شيئاً من هذا بعد اليوم –والى الأبد كما نأمل ونتمنى. لكنها دعوة .. دعوة مخلصة من القلب الى الصدق والتطهر والشجاعة في مواجهة الذات والجلوس في الظل قليلاً لمراجعة النفس ومحاسبتها ونحن بالانتظار!

ملاحظة:

هذه المقالة مستمدة مع بعض التعديلات الطفيفة من مقالة سابقة نشرتها في صحيفة المدى العراقية أواسط عام ٢٠٠٤ وللقارئ الكريم أن يكتشف إن كان ما ورد فيها قد بقي على حاله أم زاد أم نقص بعد هذه السنوات الخمس!!

اعتذارية من أديب عراقي
الى اتحاد الأدباء العرب– نيابة عن أدباء العراق

الى اتحادنا المناضل العظيم–اتحاد الأدباء العرب

باسمي شخصياً ونيابة عن كل الأدباء والمثقفين العراقيين المنضوين تحت لافتة ما يسمى الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق أود أن أتقدم الى "الأخوة المناضلين العرب" بهذه الوثيقة الاعتذارية المتضمنة لجملة من الاعترافات الخطيرة حول الدور الخياني الخطير الذي قام به اتحادنا العميل في خدمة الإمبريالية والصهيونية والرجعية راجين منكم أن تتكرموا وتتفضلوا علينا بالتفاتةٍ كريمة –انتم أهل لها– تغفر لنا هذه الجرائم الخطيرة:

أولاً:

أمتنع الإتحاد خلال الأعوام الأربعة الأخيرة عن إرسال برقيات الدعم والتأييد بنوعيها (المكتوبة بالحبر العادي والمكتوبة بالدم) الى إي من الرؤساء والملوك القادة المناضلين أبطال الأمة العربية والعالم حفظهم الله ورعاهم أجمعين مما يعد خروجاً فاضحاً وخيانياً على التقاليد القومية التقدمية التي يحرص إتحادنا العظيم

(أعني إتحاد الأدباء العرب) على إدامتها وتعزيزها خدمة لقضايا الأمة المصيرية وعلى رأسها قضيتنا المركزية من أجل تحرير فلسطين وأريتيريا وعربستان والاسكندرونة وسبته ومليله والجولان ومزارع الأناناس والأندلس وكافة جميع كلّ الأراضي المغتصبة برمتها من المحيط الى الخليج واعترافا منه بأفضال أولئك القادة الميامين في رعاية الأدباء والمثقفين العرب وتوفير أجواء الحرية والديمقراطية للمبدع العربي في البيت والعمل والنادي والمنفى والمعتقَل.

ثانياً:

قام الاتحاد بنصب صورة جدارية كبيرة للشاعر الأمريكي المعروف محمد مهدي الجواهري المدفون في "دمشق العروبة" بدلاً من صور السيد الرئيس القائد حفظه الله التي أحرقها الغوغاء والعملاء مما يشكل إهانة لمشاعر الجماهير العربية العريضة وخصوصاً أدباء الأمة الميامين الذين طالما شملهم الرئيس القائد المناضل حفظه الله برعايته وعطفه الأبوين ومنح المخلصين منهم ما يستحقون من عائدات النفط مقابل الغذاء.

ثالثاً:

في خطوة جبانة هي الأولى من نوعها في الوطن العربي أقدم

أعضاء الإتحاد على إجراء انتخابات غير شرعية لانتخاب أعضاء المجلس المركزي والهيئة الإدارية للاتحاد. ومردُ عدم الشرعية – استناداً الى الأعراف والتقاليد الثورية التي يلتـزم بهـا إتحادنـا المناضل، وأعني به مرة ثانية اتحاد الأدباء العرب– يعـود الـى الانتهاكات التالية:

١–لم تحظ الانتخابات بالإشراف المباشر مـن قبـل المكتـب المهني للحزب القائد.

٢–لم يشرف على الانتخابات أي مسؤول أمني كبيرا كـان أم صغيرا.

٣–لم يجر استحصال الموافقات الرسمية الأصولية من جهـاز المخابرات والحرس الجمهوري ومديرية الأمن العامة والحـرس الرئاسي الخاص وجهاز حماية السيد الرئيس القائد المناضل حفظه الله ورعاه ومكتب العلاقات العامة في مجلس قيادة الثورة وديوان رئاسة الجمهورية وأمانة العاصمة ومحافظة بغداد ومديرية الأدلّة الجنائية ومديرية الأفران والمخابز والقيادتين القطريـة والقوميـة للحزب القائد والمكتب الخاص لأي من أنجال وكريمات وعقيلات وأنصاف أشقاء وأبناء عم السيد الرئيس القائد المناضل حفظهم الله ورعاهم أجمعين، وديوان مجلس الوزراء ورئاسة اللجنة الأولمبية والمكتب الصحفي في ديوان الرئاسة الموقر ناهيك عـن ديـوان

وزارة الإعلام–وذلك لعـــدم وجـــود وزارة للإعـــلام.. تـــصوروا الفضيحة!!!

٤–في تلك الانتخابات المشؤومة أقدم المشاركون على طـــرح أكثر من قائمة مرشحة وهذا ما يشكل سابقة خطيرة تهـــدد بـــشق وحدة الصف الوطني والقومي والكوزموبوليتاني.

٥–أقدم المشاركون على انتخاب المدعو عناد غزوان ليـــرأس الاتحاد وهو لا يحمل غير شهادة دكتوراه (قديمة تعود الى أوائل الستينات) في فلسفة آداب اللغة العربية مـــن إحـــدى الجامعـــات البريطانية الاستعمارية وتتلخص كل مساهماته الفكرية والثقافيـــة طوال أكثر من خمسين سنة في الحقلين الثقافي والأكـــاديمي فـــي حصوله على لقب بروفيسور (وهو لقب صهيوني كما يتضح من إملاء الكلمة) في آداب اللغة العربية ثم قيامه بالتدريس في عـــدد من الجامعات العراقية والعربية (العميلة طبعاً) وإشرافه على عدد قليل –لا يتجاوز المئات– من رسائل الماجستير والدكتوراه لطلبة عراقيين وعرب وأجانب ونشره لعدد محدود –لا يتجاوز المئـــات أيضاً–من المؤلفات والأبحاث والمقالات... كل ذلك دون أن يحمل لقب صديق السيد الرئيس القائد حفظه الله ورعاه أو أياً من أنواط الشجاعة أو الاستحقاق أو شهادات المشاركة في قواطع الجـــيش الشعبي أو جيش يوم النخوة أو جيش القدس (نصرها الله جميعـــاً) ودون أن يتقلد درجة حزبية أو مخابراتية مرموقة ودون أن ينشر

(وهذه ملاحظة في غاية للخطورة) أية قصيدة أو مقالـــة تتغنـــى بعظمة ومجد وشجاعة ووسامة وإقدام السيد الرئيس القائد حفظـــه الله ورعاه.

٥-وبعد أن توفي ذلك الرجل بعد أشهر من تلـــك الانتخابـــات المزعومة أقدم المجلس المركزي اللاشرعي كمـــا أســـلفنا علـــى انتخاب كل من الناقد المجهول فاضل ثامر رئيساً للاتحاد والشاعر المبتدئ ألفريد سمعان أمينا عاماً.. وهذان الاثنان مـــن الوجـــوه المعروفة في خدمة الاستعمار البريطاني والإمبريالية الأمريكيـــة وحركة تركيا الفتاة (من قديم الزمان وســـالف العـــصر والأوان) بدليل أنهما قضيا أعواما من حياتهما خلال خمسينات أو ســـتينات القرن الماضي في سجون ومعتقلات القائد الوطني التقدمي نوري السعيد ومن بعده في سجون الحكومات الثورية الديمقراطية التـــي توالت على حكم العراق بعد ثورة ١٤ تموز الرجعية التقدمية عام ١٩٥٨ ونخص بالذكر سجن نقرة السلمان المعروف باستـــضافته الكريمة لعدد كبير من الشعراء والكتـــاب الـــرجعيين المتهمـــين بالانتماء الى الحزب الشيوعي- وهو كما تعرفون من الأحـــزاب المعروفة تاريخيا بمساندتها للإمبريالية الأمريكية والرجعية العربية والعولمة الشيزوفيرونوبروليتكنوفرمانوبوليتكية! وأبلغ دليل علـــى ذلك هو صورة قديمة شاهدتها عدة مرات خلال التـــسعينات مـــن القرن المنصرم في مكتب السيد ألفريد سمعان (وهو مكتب محاماة

في الظاهر لكنه في الباطن مركز كان يدير منه أكبـــر منظومـــة للتنصت وجمع المعلومات من الأدباء والمثقفين العراقيين لـــصالح المخابرات المريخية.. وهذا ما يفسر عدم مغادرة الأخير للعـــراق طوال العهد الزاهر للبطل الشاطر) أقول إنني شاهدت بأم عينـــي صورة قديمة تجمع المومأ إليه بالشاعر الأمريكي محمـــد مهـــدي الجواهري تعود الى القرن الماضي أيام كان الاثنان ممن يتآمران على إدارة إتحاد أدباء العراق ثم صورة أقدم بكثير تعود الى عام ١٩٤٨ أيام ما يُعرف بوثبة كانون الخيانية المناهـــضة لاتفاقيـــة بورت سموث الوطنية التحررية ويظهر فيها ألفريد سمعان وهـــو يسند أو يحمل الشاعر الإسرائيلي بدر شاكر السياب خلال إلقائـــه لقصيدة حماسية ضد الاستعمار البريطاني المجيد. ومما يحمل أبلغ الأثر أن المدعو ألفريد سمعان يظهر في الـــصورة وهـــو يلـــوّح بقبضة يده اليمنى (لاحظوا يده اليمنى مما يعني ميله المبكر الـــى لعب ركلات الجزاء الترجيحية).. فهل بعد ذلك من دليـــل علـــى الموقف الخياني لهذين الرجلين!؟

٦-ضمَّ الإتحاد ومجلسه المركزي وهيئته الإدارية العديد مـــن الأسماء المشبوهة القادمة من الولايات المتحدة العراقيـــة ودويلـــة بغداد اللقيطة وهم جميعا متفقون (رغم تباين انتمـــاءاتهم الفكريـــة والسياسية ما بين إسلامي وقومي وماركسي ولبرالـــي وعربـــي وكردي وتركماني ومسيحي ..الخ) في تعاطفهم مـــع الاحـــتلال

الأمريكي بدليل استقبال الرئيسين بوش وسامورو ميشيل لعدد كبير منهم وبشكل شبه يومي مما دفع الرئيس بوش (شخصياً) الى تخصيص جناح كامل في البيت الأبيض لغرض إقامتهم الأمر الذي شكل عبئاً كبيراً على الميزانية الاتحادية مما اضطر الرئيس المسكين الى تحويل مقر إقامة العديد منهم الى المعتقلات الأمريكية في العراق حيث الخدمة الممتازة والرعاية الكريمة التي لا تضاهيها سوى "سويتات" الاحتجاز الطائفي و "كازينوهات" قطع الرؤوس و "فنادق الأندر كراوند" و "بلازات الجثث المجهولة" و"جنائن التهجير القسري" التي انتشرت -بنعمة الاحتلال- في طول العراق وعرضه والتي حظي العديد من أعضاء الإتحاد بفرصة الإقامة فيها.. على خلاف "أشقائهم" العرب الغيورين!

رابعاً:

قام الاتحاد وبشكل متكرر برفض الدعوات الكريمة من اتحاد الأدباء العرب الى "شقيقه" الاتحاد العراقي للمشاركة الفعالة في نشاطاته الخارقة ومؤتمراته القومية السوبرتاريخية .. تلك الدعوات المنبثقة من الحرص الشريف المخلص للاتحاد العربي على التواصل مع الأدباء العراقيين الأمر الذي تأكد من خلال دعمهم لـ "أشقائهم" في ظل ظروف الاحتلال والإرهاب والفتنة الطائفية بالقصائد الثورية والبرقيات والخيام والبطانيات ووسائل

التدفئة والتبريد الحديثة.. وهو بالمناسبة موقف أخلاقي لن ينساه الأدباء والمثقفون العراقيون لـ"الأشقاء" الأشاوس!

واستناداً على ما أسلفت (وما تتكرمون بإضافته من حقائق دامغة يهديكم اليها فكركم النيّر وحبكم العميق للعراق والعراقيين) فإن ما يسمى بالاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق (الواقع في ساحة الأندلس قرب مطعم همبركر الأندلس مقابل الشركة العامة للسيارات) قد تحول الى امتداد تاريخي للهجمة الإمبريالية الصهيونية الرجعية (هذه الأخيرة يمكن إضافتها أو حذفها حسب البلد المضيف لاتحادكم المناضل) ضد الأمتين العربية والإسلامية. وما هذه الوثيقة الاعتذارية- الاعترافية سوى مقدمة أولية لطلب الصفح والمغفرة ونعدكم باتخاذ اللازم لتصحيح هذه الأوضاع الشاذة خلال السنوات الأف المقبلة.

والله أكبر .. وليخسأ الخاسئون!!!

يا علي ياويكه.. آخ يا علي يا ويكه!

بدايةً وقبل كل شيء أسجل رفضي القاطع لإدراجي في أية خانة طائفيةٍ أو مذهبية، وأعلن اعتراضي المسبق على أي تعليق أو ردٍ ينطوي على اعتباري شيعياً أو سنياً أو مسيحياً أو يهودياً...الخ. فأنا كما يعرفني المقرّبون رجلٌ يعتز قبل كل شيء بعراقيّته وعلمانيته وانتمائه الإنساني والوطني، مع احترامه العميق بالطبع لكل الأديان والمذاهب والشعوب والمعتقدات مادامت تصب في خدمة السلام والمحبة والتفاهم بين الأمم والحضارات..

لكنني وباختصار شديد أعلن امتعاضي واستهجاني الشديدين لما دأب عليه بعض "الأخوة" المصرين من إطلاق ألفاظٍ نابيةٍ حمقاءَ بحق قطّاعين مهمين وكبيرين من شعبنا العراقي النبيل وهما شيعة العراق الأصلاء وكرده النجباء؛ إذ درج هؤلاء، وكما يصلنا عبر أفلامهم ومسرحياتهم ومسلسلاتهم التلفزيونية ومنذ أيام المرحومين الريحاني وإسماعيل ياسين، على استعمال كلمة "الرَفَضي" أي الشيعي استعمال الشتيمة المقذعة والعار الذي ما بعده عار!

وأحسبُ أن شيوع ذلك يعود الى عصور تاريخية مظلمة لعب فيها سلاطين مصر "الحاكمون بأمرهم" أو "الناصرون لأنفسهم" دوراً خبيثاً في استخدام الخطاب الطائفي -باتجاهاته المختلفة- للاحتفاظ بعروشهم وإلهاء الشعب المصري العظيم عن قضاياه الحقيقية.

غير أن العجيب في الأمر هو إصرار بعض الفنانين والكتاب المعاصرين على هذا النهج مع إدراكهم لخطورة هذا المنحى الطائفي على حاضر ومستقبل المنطقة بأسرها وخصوصاً في هذه الفترة التي وصل فيها التخندق الطائفي والاستقطاب المذهبي الى حد حفلات الذبح الجماعي وحملات القتل والحرق على الهوية. فهل يدرك هؤلاء أن هذا النهج الأحمق يتعارض من الأساس مع رسالة الفن النبيلة السامية، وهل يعلم هؤلاء ماهم فاعلون ثم يصرون عليه قاصدين متعمدين؟ أم إنهم يسيرون دون دراية وراء من يريد إحراق الأخضر واليابس في هذه المنطقة المبتلاة أصلاً بكل آفات هذا العصر والعصور التي سبقته؟!

والأمر نفسه ينطبق على استخدام ألفاظ مثل "استكردني" أو "إنته بتستكردني"..الخ وكلها تحاول الربط بين كون المرء كردياً وبين الغباء والغفلة والحمق! فهل ينتبه هؤلاء الى ماتحمله هذه الألفاظ من دلالات عنصرية وشوفينية عفا عليها الزمن وأضحت

دليلاً على غباء وغفلة وحمق من يسمح لنفسه بلفظها ناهيك عن إقحامها في عمل فني أو أدبي؟

لقد عاش ملايين المصريين في كنف الشعب العراقي بعربه وكرده وسنته وشيعته ومسيحييه، وظلوا لسنوات طوال يقيمون ويعملون في بغداد والبصرة والأنبار وأربيل وكربلاء وكركوك والموصل ويتمتعون بالأمن والخير دون أن يشعروا يوماً بأنهم في بلد غير بلدهم وبين شعب غير شعبهم فهل يكون جزاء ذلك توجيه هذه الألفاظ البذيئة النابية بحق هذا الشعب الكريم؟ وهل يرضى أبناء مصر الذي نكنُّ لهم كل الود والاحترام بأن نكيل لهم الصاع بالصاع؟

أما إذا قال قائل منهم إنهم يفعلون ذلك عن حسن نية وعلى سبيل الفكاهة والمزاح فهل يرضون بأن نبادلهم أطرافاً من تلكم الفكاهة وذلك المزاح بأن نجعل -مثلاً- من كلمات مثل "مصري" أو "إسكندراني" أو "طنطاوي" شتيمةً على شاشات قنواتنا الفضائية كما يفعل الفنان المصري "الكبير" حسن حسني هذه الأيام في مسلسله الذي لا نتمنى أن يكون الأخير "علي ياويكه"؟

إن كانوا يرضون فنحن لا نرضى، ولكن هل .. وهل... وهل؟

٤/٤/٢٠٠٧

وداعاً مكتبتي الشهيدة... مرحباً مكتبتي الجديدة!

لا أكشف سراً إذا قلتُ أن اليوم الذي بلغني فيه خبر قيام الإرهابيين بنهب مكتبتي مع ما نهبوا من أثاث بيتي ومحل عملي ومنتداي الأثير نزل على رأسي نزول الصاعقة على رأس عجوزٍ أصلع! فكان أن كتبتُ -وهل عندي غير أن أكتب- واحدة من أكثر مقالاتي حزناً وغضبا: ماذا فعلتم بكتبي أيها الـ...؟

ولم تتأخر الإجابة على تساؤلي المرير؛ فسرعان ما جاء الخبر الأسوأ بأنهم،أي أولئك الأجلاف الأميين، قد كوّموا العدد الأكبر من كتبي الحبيبة أمام داري الذي جعلوه وقفاً لدولتهم "السلاًمية" الدموية السريعة التبخر ثم أشعلوا فيها النار وأتلفوا البقية الباقية منها. فكان أن تحول حزني الى جزعٍ حقيقي، فلم أجد إلا أن أصرخ في مقالةٍ ثانية: وا ابنَ رُشداه... لقد أحرقوا كتبي!

لكننا -معشر العراقيين- سرعان ما نعضّ على جراحاتنا ونمضي في دروب الحياة الوعرة التي كتبت علينا، لا لأننا سريعو النسيان أو السلوان ولكن لأننا منشغلون دوماً بجراحات جديدة لا تفتأ تخرج لنا طلعها الذي كرؤوس الشياطين:

على إنها تعفو الكلومُ وإنمانوكَّلُ بالأدنى وإن جلَّ ما يمضي!

وهكذا صرت أجد بعض العزاء في قراءة ما أمكنني إنقاذه من كتب الكترونية كنت قد جمعتها في الأيام الخوالي وما أضفته اليها من كتب و"مجلدات" صرتُ "أقتنيها" من "رفوف" مكتبات الـــشبكة العنكبوتية المباركة. وسرعان ما انقلبت الـــسلوى الـــى انـــدماج، والاندماج الى هوى، والهوى الى عشق، والعشق الى إدمان!

وصرتُ أراني على سريري والى جانبي شاشـــة الحاســـوب أقطف منها ما أشاء من فاكهة الفكر والأدب الدانية دون تعـــب أو عناء، بل إنني لأزعم أن الملل والقلق كانا سيقضيان عليّ لا محالة وأنا أتماثل للشفاء بعد أن كاد قلبي يخونني لـــولا تلكـــم الكتـــب الألكترونية. فشكرت الحظ الذي أهدى إلي زوجةً رائعـــة كانـــت حريصة وهي تلملم ما تستطيع في العجالة والهلع اللذين لا يعرفهما إلا "المهجرون في الأرض" كانت حريصة علـــى إنقـــاذ حاســـبة زوجها وأقراصه الليزرية التي تعدها كثير من الزوجات "ضرّات" مزعجات ينافسنهن على قلوب أزواجهن ووقتهم وجيوبهم ويفضلن في مثل هذه الأحوال أن يحملن "علب المكياج ومـــواعين البيـــت ومزهريات غرفة الضيوف".. وهكذا صرت أقلب "السيديات" وأنا أردد مع الشاعر الجاهلي:

حمدتُ إلهي بعدَ عروةَ أن نجا

خراشٌ وبعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

وللحق –وبعيدا عن المزاح – أقول إنني كنت أفكر، قبل أن يقدم أولئك الأوغاد على فعلتهم المخزية، في إهداء مكتبتي الى خزانة كتب اتحاد الأدباء ليأسي من حصول مَن سيخلفني على امتلاكها على شيء من المتعة والفائدة، لكنني فوجئت بالأمين العام للاتحاد وهو يحدثني عن حزنه لما ستؤول اليه مكتبته الكبيرة بعد رحيله وإنه يفكر في إهدائي وبعض الزملاء الآخرين القسم الأكبر منها!! وعندما لمّحتُ الى فكرة إضافة كتبنا الى مكتبة الاتحاد أشار بيأس الى قاعة المكتبة الزاخرة بمئات الكتب والمجلدات التي لم تقلبها يد قارئ من الأدباء والمثقفين "المحترفين" ناهيك عن رواده من "الهواة والمشجعين"!!

غير أن الإنصاف يقتضينا أن نشير الى أن ظاهرة العزوف عن اقتناء الكتب وقراءتها لا تقتصر على مجتمعنا العراقي ومثقفينا العراقيين (رغم وصولها عندنا الى مستويات خطيرة لا تليق بـ"صنّاع حضارات" خارقين مثلنا) بل تشكل ظاهرة عالمية تشير إليها أغلب الإحصاءات التي أجريت في بقاع الأرض المختلفة بعوالمها الثلاث: الأول ... والثالث.

لكن العزوف عن الكتاب لا يعني بالضرورة العزوف عن القراء والمطالعة وتحصيل المعلومة؛ فالملايين من البشر صاروا يجدون ضالتهم في آليات المطالعة الالكترونية والنشر عبر

الانترنت للوصول السهل للرخيص الحر الآمن الى المعلومـــة أو العمل الفني والثقافي والعلمي.

وعملية التحول نحو التقنية الرقمية في هذا المجال ليست على هذه الجِدَّة التي قد يتصورها بعضنا، فهي تعود الى أكثر من ربع قرن في أقل تقدير، وما زلت أنكر شيئاً من خبرٍ أذاعته الــ "بــي بي سي" مفاده أن المكتبة المركزية في "هونغ كونغ" قد تبرعــت مشكورة بالآلاف من مجلداتها الى جامعات "فيتنام" بعد أن انتفــت الحاجة اليها (أعني المجلدات وليس الجامعــات) بــسبب إنجــاز المكتبة لمشروع تحويل كتبها المطبوعة الى الصيغة الرقمية. لــم أفهم بالطبع كل ما سمعته في وقتها وخصوصاً تلك المصطلحات التي كانت غريبة عن أذهان المواطن العراقي لأنه كان منــشغلاً حينها بمتابعة إنجازات حسين كامل و "ويلاد القائد المنصور" التي كانت تزف إلينا بشرى دخول العراق الى عصر الفضاء والــذرة "اللي جواها النواة".

لقد نزلت تلك الآليات على الناس –أكثر الناس– مثــل نعمــةٍ عظيمة فتحت أمامهم آفاقاً جديدة عظيمــة فــي الاســتفادة مــن/ والإضافة الى التراث الفكري الهائل للبشرية رغم أن البعض من أنصار القديم يلوون شــفاههم امتعاضــا كلمــا ذكــرت أمــامهم مصطلحات وعبارات مثل الكتاب الالكتروني والمجلة الالكترونية والنشر عبر الإنترنت، وقد يكون لهم بعض الحق في ذلك؛ فمــا

زالت الطريقة الورقية "الكلاسيكية" في القراءة والكتابة تتمتع بعدد من الفضائل والمزايا التي يعز عليهم -وعليّ- مفارقتها. ولو قدر لي أن أؤلف كتاباً على غرار كتاب الآمدي "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري" أو كتاب القاضي الجرجاني "الوساطة بين المتنبي وخصومه" وأن أسميه "الموازنة بين الكتاب الالكتروني وخصومه" فلن أزيد على إيراد الفضائل والشمائل التالية لكل منهما:

فمن فضائل المكتبة الالكترونية صغر حجمها وخفة وزنها وسهولة تنظيفها وترتيبها فلن أحتاج بوجودها الى خزائن ورفوف وعلب كارتون أكدس فيها أكوام الكتب والمجلات والصحف وأكسر ظهري كلما رمت نقلها قبيل كل "تعزيلة للبيت" اختيارية كانت أم قسرية-تهجيرية، أضف الى ذلك أنني لن أسمع لوم وتقريع زوجتي على زحف الكتب والصحف الى كل مكان في البيت من الحمام وحتى مائدة الطعام!

ومن فضائلها أنني سأحرم الإرهابيين و"الإخوة المجاهدين" من متعة حرق كتبي أو تعريضها للمهانة والأذى على قارعة الطريق.

ومنها أنني سأقتبس وأقتطع وأنسخ وألصق وأشطب من متونها كما يحلو لي دون أن أخشى تمزيقاً أو تسويداً أو تأنيباً من مُعيرٍ أو ضمير!

وسوف يكون البحث عن موضوع أو مفردة أو مقتبَس أو معنىً أو المقارنة أو الإحالة والانتقال بين المصادر أسهل بآلاف المرات

فضلاً عن التمتع بفضائل "الملتيميديا" أطال الله عمرها من صوتٍ وصورةٍ ومؤثرات و"ملاعيب" أخرى تزداد يوماً بعد يوم.

ولا حاجة طبعاً الى الإطناب في الحديث عن الرخص الخيالي لأثمانها. فقد اشتريت على سبيل المثال قبل أيام قرصا رقميا (دي في دي) يضم العشرات -نعم العشرات- من أمهات القواميس والمعاجم العالمية التي لم يكن لفرد أو حتى لمؤسسة جامعية أن يحلم بضمها كلها الى مكتبته قبل بضعة أعوام وتنكرت، وأنا أدفع ثمنها (ألفي دينار فقط لا غيرها) ومثلها لقرص يضم الموسوعة البريطانية العملاقة، كيف كنت أروح وأجيء مثل الكثير من أمثالي وأنا "ألوب" وتذهب نفسي حسرات أمام مجلدات تلك الموسوعة الأنيقة التي كانت عروس معرض بغداد الدولي للكتاب منتصف الثمانينيات والتي كانت معروضة بسعر وقح يقارب الستمائة دولار على ما أذكر. فشكرا للقدر الذي جعلنا نعيش في زمانٍ ومكانٍ لا يُعتَرف فيهما بشيء اسمه قوانين حفظ الملكية الفكرية ومنع القرصنة الالكترونية وإلا لاضطررنا -شأن المواطنين في البلدان الغربية المتخلفة-الى دفع رزمة من الأوراق الخضر لاقتناء قرص ليزري يباع على أرصفتنا بأقل من دولار واحد.. ويا بلاش!

ومن فضائلها أن ورثتي "بعد عمرٍ طويل" لن يـضطروا الـى البحث عمن يخلصهم من أكوام الكتب التي تركها "المرحوم" والتي لن يقبل بشرائها غير باعة الحب والحمص. وإني لأكاد أراهم وهم يتأففون (أو يتثاقلون في أبسط تقدير) إذ يحاولون تدبير مكانٍ لهـا ثم التخلص منها بأبخس الأثمان وهم على حق و"مبروئي الذمـة" في فعل ذلك، فهي بالتأكيد لن تتمتع بقيمة مادية تذكر رغم أنـي أنفقت عليها "دم قلبي" من النقود التي ربما استحالت عند آخـرين الى سيارات فارهات أو بيوتٍ عامرات أو ذهب رنان يزين جيـد الغانيات.

ومنها أنني لن أتوسل الى صديقي كي يعيد لي "مـذكرات آدم وحواء" لـ"مارك توين" (في طبعةٍ نفيسة تعود الى ما قبل خمسين عام) والتي استعارها مني قبل عقدين من الزمان رغم انتقامي منه بـ"استعارة" كتاب لا يقل عنه نفاسة وهو "موجز تـاريخ العـالم" لـ"ويلز" والذي انتهى حرقاً على يد الإرهابيين فيما ظل "مـارك توين" سالماً معافى في "الكارتونة" التي أرقده فيها صديقي. كذلك لن أضطر الى سؤال أصدقائي مراراً وتكراراً عمن "استعار" منهم رابع نسخة أقتنيها من مذكرات بابلو نيرودا التي أدمنـت علـى شرائها وقراءتها وإعارتها في كل مرة الى واحد مـن "الأخـوة المؤمنين" بشعار "برنارد شو" سيء الصيت: مغفل من أعار كتاباً ومغفلٌ ..الخ!!

ولسوف يكون من السهل علي أن أجود (أو أتبرمك بـــالعراقي الفصيح) بكتبي ومصادري دون وجع قلب لا على سبيل الإعـــارة بل على سبيل "العطيه ما من وراها جزيّه" إذ يمكنني بكل بساطة إرسالها عبر الإيميل أو تحويلها الى حاسبة صـــديقي أو "قـــارئ الفلاش" أو حتى هاتفه النقال.

ورغم أن كلتا الطريقتين تتراشقان التهم في إضـــعاف البـــصر وإحناء الظهور وتسطيح "المؤخرات" وهي صـــفات جـــسمانية لا تخطئها العين في مدمني القراءة، فإن الطريقة الرقمية تمنحك ميزة التحكم بحجم الخط ونوعه ولونه وسطوعه. أما إذا كنـــت تهـــوى القراءة باللغة الإنكليزية فيمكنك أن تضع رجلاً علـــى رجـــل أو تعبث بمسبحتك أو تتقلب في فراشك وأنت "تسمع" الكتاب بالسرعة والارتفاع والنبرة التي تعجبك بواسطة برنامج القارئ الآلي الذي سيصل بك الى أعلى مستويات الترف والدلال. غير انك لن تتمتع –مع الأسف– بمثل هذه الخدمة باللغة العربية في الوقت الحاضر الى أن يأتي اليوم الذي تتفضل به إحدى الشركات (الأجنبية طبعا) بتطوير برنامج كهذا لقراء هذه اللغة أو تتصدى إحدى المؤسسات الإقليمية لمثل هذه المهمـــة.. طبعـــا بعـــد أن تفـــرغ الـــشعوب والحكومات العربية من حل جميع "القضايا المصيرية" التي تفوق بالتأكيد عدد هواة المطالعة عند "خير أمة أنزلت للناس".

ومن البديهي أنني سآمن من ميتة الجاحظ الذي "انتقل الى رحمة الباري" إثر حادث مؤسف سقطت فيه أكوام الكتب على جسده العليل كما تزعم الروايات! كذلك لن يجرؤ أحد بعد الآن على تسميتي أو تسمية نظرائي بـ"دودة الكتب" أو "زير المكتبات" أو "المريض بجنون الكتب bibliomania" وهي تهم مخلة بالشرف في زماننا هذا.

ثم إنني لن أثقل بعدُ ميزانيةَ الأسرة المنهكة أصلاً؛ إذ سألغي الى الأبد تلك النظرية البالية التي كنت بمقتضاها أوزع دخلي أو حملاتي الإنفاقية الرعناء بين غذاء للجسد من مأكل وملبس وغذاء للروح من كتب أو تسجيلات الخ!

ولن أنسى أيضاً أنني سأحصل على ما شئتُ من كتبٍ ممنوعة أو محرمة وأنا جالسٌ في مكاني لا أبرحه ولا أجرر أقدامي بين مكتبة وأخرى، ولن أحرص على إخفائها عن أعين رجال الأمن أو الزوار المتطفلين أو هواة كتابة التقارير الكيدية الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان في شرقنا المتحضّر الناهض.

وسأستطيع حشر مكتبتي "الكبيرة" في كيسٍ أو حقيبة صغيرة وحملها معي الى كل مكان في العالم –ما عدا السجن والقبر طبعا.

ولن أحار بأمر القوارض والحشرات التي عاثت فساداً بالمكتبة الورقية، صحيح إن هناك فايروسات وديدان كومبيوترية لكن أمر

علاجها والوقاية منها أسهل بكثير من تلك الفئران وذوات اللوامس التي لا تشبع.

أما إذا انتقلت الى المعسكر الآخر –معسكر أنـصار الطريقـة التقليدية– فلن أراني وقد أفحمني "أناي الآخـر" بهـذه البـراهين البليغة إلا متمسكاً ببضع حجج لا تخرج عن الطقوس والقناعـات والعلاقات الروحية التي ترسخت في طبائعنا من طول اعتيـاد لا غير:

فسوف أفتقد بالتأكيد تلك السلسلة من الذكريات التـي رافقـت اقتناء كل كتاب، والإهداءات والهوامش الغاضـبة أو المعجبـة، والنقاشات التي أثارها، ومغامرة حملها أو اقتنائها في زمن كـان الكتاب المخالف دليلاً جرمياً قد يودي بحياتك، ومعارض الكتـاب الغاصة بالرواد، والدوران شبه اليومي على المكتبـات العـامرة الكثيرة التي كانت تنتشر على جانبي شـارع الرشـيد وشـارع السعدون مروراً بشارع المتنبي وسوق السراي والتي أصبح العديد منها أثراً بعد عين أو تحولت الى محلات لبيع الأحذية أو السكائر في أحسن الأحوال!

ولسوف أفتقد رائحة الحبر والورق التي تفـوح مـن الكتـب الجديدة، تلك الرائحة التي تسبب الإدمان لدى مستنشقيها والتي لا

يضاهيها إلا عطر امرأة حبيبة أو رائحة رضيع مستحم للتو أو رغيف خبزٍ منزلي خارجٍ من التنور!

وسأحرم من ممارسة عادة القراءة في وسائل النقل وأطوي ذكرى إزعاج السائقين بإشعال الضوء الداخلي للسيارة في الرحلات الليلية الطويلة الى جبهات الحروب أو المصباح اليدوي الصغير الذي كنت أخفيه في صباي مع رأسي وكتابي تحت اللحاف لكي لا أقض مضاجع إخوتي المتعَبين النائمين قربي.

وسوف...

لكن لكل شيء حلا، وكل ما قد يفتقده المرء من مزايا وطقوس تخص الطريقة الكلاسيكية سيجد له "الكفرة الغربيون عبيد الكومبيوتر" حلا مناسبا، طبعا باستثناء إمكانية تشغيل الحاسبة على اللالة النفطية وهو أمر سيتركه تاريخ العلم والتكنلوجيا لعبقرية مخترعينا الأشاوس في شارع الشيخ عمر!

لقد تحدثت في كل ما سبق من وجهة نظر القارئ –المطالع لا من وجهة نظر الكاتب أو الناشر أو الباحث فالحديث في ذلك يطول ويتشعب ويبعث على التثاؤب.

يقول البعض أن المستقبل سيكون للكتاب الإلكتروني وحده، فيما يؤكد البعض الآخر أن الكتاب المطبوع سيبقى صامداً الى زمن أبعد مما يتصور البعض الأول، لكن من عجائب الاتفاقات

في بلادنا أن كلا من الكتاب الورقي والقرص المضغوط ينتهيان، وبعضهما ينظر الى بعض، نحو مصير واحد: باعة الكــرزات.. الأول لصنع أكياس صغيرة ومخاريط للف الحمص وحب الشمس والرقي، والثاني لعمل لوحات إعلانية مبتكرة تتربع فوق أكيــاس الكرزات والمواد التموينية وقد خط عليها بالقلم السحري العريض: قاموس ياباني .. عفواً فستق سوداني، ١٠٠ غرام، ٥٠٠ دينــار عراقي!!

بين الأدب الساخر والتهريج الرخيص.. أكثر من خيطٍ رفيع

نعم، بينهما أكثر من خيطٍ أو حبلٍ أو جدارٍ. ولكن قلَّ من يراه!

فلقد أقبل الكثير من القراء على هذا الجنس الأدبي الخطير الصعب الذي لا يستهانُ بأهميته، يقابلهم حشد من الكتاب (وكثير منهم يكتب تحت أسماء مستعارة) ممن أقبلوا عليه أيضاً في خفةٍ وعجالةٍ وقلةِ زادٍ فني وفكري حتى طفحت بكتاباتهم صفحات الجرائد ومواقع الانترنت وصرتَ لا تفرق بين كاتبٍ وكاتب.. أو بين أسلوبٍ وأسلوب. وكان لهم في المشهد العراقي العجائبي الذي يستطيع من شاء أن يحمّل منه الأطنانَ تلو الأطنانِ من الضحكاتِ أو الدموعِ أو اللعناتِ أو الحوقلاتِ أو الحسبلاتِ، كان لهم في هذا المشهد خيرُ حافزٍ للكتابةِ في فنٍ له جمهوره الواسع المضمون الذي يزيد أضعافاً مضاعفةً على جمهور فنون الأدب السيئة الحظ الأخرى التي لا تجد من يردّ عليها السلام!

أقول إن بعض هؤلاء (وقد يكون "البعض" الأعظم) يستسهل الكتابة في هذا الجنس الأدبي: قليلٌ من التلاعب بالألفاظ، حفنة من البذاءات، بضعة شتائم، إضمامة من الألفاظ السوقية الرائجة في

الموسم، قبضة من التهم والإشاعات تُخلَط في منقوع من التغـابي والتبالُهِ والتحشيش، يضاف إليها عدد من الأسماء المشهورة التي تُمسَحُ بها الأرضُ لكي تضفي بعض الأهمية على الموضـوع أو كاتبهِ ليصدُقَ وصفُ المتنبي:

لِكَي يُقالَ عَظيمُ القَدرِ مَقصودُ

وأخيراً شيء من السلاطة (أقصد سـلاطة اللـسان) وتكتمـل الطبخة لكي يتلقفها موقع أو صحيفة ويبتلعها السيد المواطن الغافل الجائع هنيئاً مريئاً!

نعم. قد يحتاج الكاتب، أي كاتب الى شيء من هذا أو ذاك: قد يتلاعب بالألفاظ "تَقيّةً" أو لغايةٍ فنية أو "موضوعية" ما.

قد يتغابى الكاتبُ الفَطِنُ حين يرى غباءَ المحيطِ والمحيطين كما قال أخو بني حمدان:

تَغابَيتُ عَن قَومي فَظَنّوا غَباوَتي

بِمَفرِقِ أَغبانا حَصىً وَتُرابُ!

وقد يكونُ من "الأسماء المشهورة" في هذه الأيام وخصوصاً من "السياسيين" والـ "محللين السياسيين" الفقاعويين المانفستوبين مـن يستحق الضرب بالـــــ (..) القديمة، لكن هذه الأمور وحدها لا تضمن مقالة ساخرة يمكن أن تستحق البقاء والتقدير.

ترى ما الفرق بين مقالات شمران الياسري التي جمعت السخرية والحس الشعبي الأصيل الى التحليل الصائب الذكي والتي كان وزير الإعلام في السبعينات "السيد طارق عزيز" يستشيط منها غضباً وتدفعه الى "التنازل" بالرد عليها شخصياً تارةً وتوجيه "الإنذارات" الى الصحيفة الناشرة "تارات" أخرى وبين مقالات المستشار (أو السكرتير.. لا أتذكر بالضبط) الصحفي للأستاذ الفاضل ابن القائد المناضل الذي كان يريد إضحاكنا (أضحك الله سِنّهُ) عن طريق المقارنة بين حالنا وحال اليابان متناسياً أن "المشاريع الطَموحة" والأحلام "القومية التقدمية" والمغامرات "الجهادية" لسيّده "القائد الضرورة" هي التي جعلتنا في الحضيض الأسفل من قائمة الأوطان "الحرة الكريمة"؟

ترى ما الفرق بين الأغنيات السياسية والاجتماعية الساخرة لفنان الشعب عزيز علي والتي ما تزال تحيا بيننا وتتنفس، وبين المونولوجات الساذجة البسيطة التي كان يقدمها بعض المعاصرين له أمثال المرحومين "علي الدبو" و"فاضل رشيد" التي تنصحنا باجتناب السكران لأن "فلوس العرق مو مِنّه" أو تتساءل بإلحاح عمن "سرقَ الديك"!

ترى ما الفرق بين قصائد "أحمد فؤاد نجم" التي كان يصدح بها "الشيخ إمام" وتنطلق من حارات القاهرة الفقيرة لتزلزل الشارع تحت أرجل الحاكمين بأمرهم، وبين "الطقاطيق" البدائية للـ"فنان"

شعبان حسين المصابة بفقر الدم الشديد في الشكل والمضمون رغم البدانة المفرطة للـ"فنان" المـذكور و .. "هيييييـه، أنـا بكـرَه إسرائيل"!؟

يمكننا أن نستمر في التساؤل وإيراد الأمثلة لكنني لن أدخل في متاهات النقد التي لا أعرف عنها الشيء الكثير لأن الجواب لكـل ذلك في رأيي مختصرٌ مفيد:

الأدب الساخر أدبٌ هادفٌ ملتزم يتميز بالوعي الشديد والذكاء والعمق والحساسية والنبل.. أما التهريج فلا هدف له غير السخرية لأجل السخرية وليس فيه شيء من الوعي السياسي أو الاجتماعي رغم أن بعض كتّابه يتميزون بالذكاء وحس النكتة وهمـا أمـران مفيدان لو أُحسِن استخدامهما.

مهما بلغ كاتب الأدب الساخر من سخريته فإنه حريص علـى استخدام لغةٍ عاليةٍ وأسلوبٍ فني راقٍ يكشف عن مستوى الكاتـب ومصادر ثقافته، ثم إنك تقرأ بين سطوره تحليلاً مدروساً للأوضاع واحتراما للخطوط الحمراء التي يضعها لنفسه، ولا أقصد بالتأكيد الخطوط التي يضعها الرقباء أو الأنظمة الحاكمة، بل الابتعاد عن الابتذال والبذاءة والإساءة الحاقدة الى شعوبهم وثوابتها الأخلاقيـة والسياسية ومنجزاتها الحضارية والفكرية. وحسبنا أن نذكّر بـأن "جوناثان سويفت" أحد ألمع الكتاب الساخرين الإنكليز كان واحـداً

من أفضل كتاب عصره وأكثرهم ثقافة وسياسيا بارزا ورأساً من رؤوس الكنيسة في زمنه، ويكفيك أن تقرأ مقالته الساخرة الأليمة التي أسماها "اقتراح متواضع" أو روايته الفلسفية العظيمة "رحلات غوليفر" لتكتشف عمق الوعي بعيوب ذلك العصر ومآسيه وتناقضاته بل وبعيوب النفس الإنسانية في كل زمان ومكان.

أما التهريج فإنه يميل الى الركاكة والسفاهة والسطحية والضعف الفني واللغوي الذي يفضح ضحالة الكاتب وقلة وعيه السياسي والفكري وهزالة مصادره الثقافية، أضف الى ذلك تخطيّهِ غير المبرر في أحيان كثيرة لهذا الذي أسميتُهُ -تشبيها- بالخطوط الحمراء حتى بلغ الأمر ببعضهم الى إهانة شعوبهم أو شهدائهم أو مقدساتهم لا لشيء إلا الإضحاك والسخرية كما يدّعون بينما قد يكون الغرض الخفي/المكشوف طعنا حاقداً صادراً عن نفسٍ مريضةٍ ينفثه قلم موتور مسموم مثل تلك الأقلام "الفاشية" السابقة التي ركبت موجة الكتابات النقدية الساخرة وراحت تخلط السمَّ بالعسل لكنها لم تفلح، مهما غلفت كتاباتها بالهزل أو السخرية، إلا في أن تفضح حنينها الى أمجاد الفاشية والدكتاتورية البغيضة.

يتميز التهريج الهابط بالحشو والثرثرة والتفكك وقد تنتهي من قراءة مقالة مطولة دون أن تفهم ما يريد الكاتب "خفيف الظل" إيصاله إليك (هذا إن كان لديه شيء يريد إيصاله) ناهيك عن موقفه أو وجهة نظرة في الموضوع.

خلاصة القول إن الأدب الساخر ليس بالجنس الأدبي البسيط القليل الأهمية والخطورة لكنه ينتمي الى طرازٍ من الأدب الرفيع الراقي، الأدب الملتزم بقضايا وهموم وتطلعات الفقراء والكادحين والمثقفين والمهمشين والمظلومين ممن تصح عليهم تسمية طه حسين بالمعذبين في الأرض! أما التهريج فهو ببساطة شديدة ومع افتراض سلامة النية لدى كاتبه.. مجرد تهريج!

ولهذا فإن لي عليك –أيها الصديق العزيز الذي، برغم ثقافته الرفيعة وقراءاته الكثيرة، ما انفك يستشهد بأقوال هذا وذاك من الكتاب "الساخرين" الذين لا يخفي إعجابه بهم، وقد يكون محقا مع بعضهم– أقول أن عليك أن تقرأ جيداً، كما عهدتك، كل الذي يخفى بين السطور، فكم من طائر حر وقع في مصيدة لم تصنع إلا..... إلا من هذا الخيط الرفيع!

٢٠٠٨/٩/٢

ماذا يفعل "قيصر نوميّه... لو صار رئيسا للجمهورية؟!

حدثنا أحد الأصدقاء ممن يحب التـنصت على النـاس ونقـل الحكايات والأخبار فقال:

-بينا أنا في مدينة السلام، بين ضجيجٍ وزحام، خارجـاً مـن سوق البالات، مروراً بما كان وزارةً للإعلام، وداخلاً فرع سينما الخيام..

-اسمع يا هذا! (قاطعته أنا) لا تصدّع رؤوسنا بسجعك العقيم! تكلم مثل الآدميين وإلا غادرتك الآن وتركتك تدفع حساب الشايات والنركيلة، ولينفعك ساعتها عيسى بن هشام أو الحارث بن همام!

-ولماذا هذه العصبية من جنابك؟ الحقُ عليَّ لأنني أريـد أن أقص عليك ما شاهدته بالأمس بطريقةٍ فنيـة. ولكـن لا تزعـل، سأحكي لك ما حدث بالحرف الواحد ودون رتوش وبهارات تاركا لك حرية نقلها لقرائك بالطريقة التي تعجبك.

-حسنا تفعل.

-أوكي، أز يو وِش (تحول عيسى بن هشام الى لغة العلـوج) أين وصلنا؟

-وهل بدأنا حتى نصل؟!

–حسناً، لقد تذكرت. بالأمس وحوالي الساعة العاشرة صباحاً، لا لا، كانت العاشرة والنصف بالضبط، أي قبل نصف ساعة من حدوث الانفجار أمام مقهى حجي جاسم، أو بعبارة أدق المرحـوم حجي جاسم لأنني علمتُ بأنه فارق الحياة بعد دقائق من وصـوله الى طوارئ مستشفى الكندي (ورفع يديه ليقرأ الفاتحة فأطال حتى حسبته يقرأ معها سورة البقرة).. آمين رب العالمين. أين وصلنا؟ ها، تذكرت. كنت أسير في الباب الشرقي، خرجتُ مـن سـوق البالات ثم عرّجت على سوق الالكترونيات ووجدت نفـسي فـي بداية شارع الجمهورية قرب بناية وزارة الإعلام القديمة فعبـرت الشارع من رأس النفق ودلفت الى شارع سينما الخيام من جهـة بناية الهلال الأحمر (كان بالطبع يتعمد إزعاجي بهـذه التفاصـيل انتقاماً على مقاطعتي إياه في بداية حديثه، ولكنني آثرت الـصمت منتظراً أن أصل الى الزبدة كما يقولون) وهناك، عند نهاية الشارع قريباً من عمارة نقابات العمال السابقة رأيت جمعـاً مـن النـاس متحلقين، يعني متجمعين حول..

–قرّاد يرقِّصُ قرده! (قاطعته نافد الصبر)

–لا يا خفيف! كان هذا في مقامات بديع الزمان الهمذاني، أمـا ما رأيته فقد كان شيئاً آخر: لقد كان بـائع "سـيديات" يعـرض بضاعته على الرصيف.

– سبحان الله. كل هذه المقدمات لتخبرني أنـك رأيـت بـائع سيديات؟!

-لا يا ساذج (قالها بالفصحى، وبفتح الذال أيضا) أنت لا تعرف من يكون بائع السيديات هذا.

-ومن يكون، عمر الشريف شخصياً؟

-لا .. لا تسخر.. لقد كان .. قيصر نوميّه .. نعم قيصر نوميّه بشحمه ولحمه!

-من؟ صاحبنا قيصر نوميّه؟ (سألتُ بشيءٍ من الفضول الذي نجح في إثارته) أما زال حيّاً؟ ألم تخبرني بنفسكَ قبل أعوام بأنه خُطِفَ وقُتِل على طريق الحِلّة؟

-أمّا إنه خُطِفَ فهذا صحيح مئة بالمئة، لقد أخبرني ابن عمّه شخصياً. لكنه لم يُقتَل، لقد نجح في الإفلات بطريقةٍ ما، أنت تعلم، إنه كالقطط بسبع أرواح.

-أو إن معلوماتك لم تكن دقيقة "مئة بالمئة".

-مو مهم، مو مهم (زاغَ من تعليقي بسرعةٍ) لقد عرفته من صوته قبل أن أراه، لكنه، ابن الـ... أنكرني في البداية. وحتى بعد أن عرفني.. لقد اكتفى بكلمة 'هلو' صغيرة وأشار لي بيده كي أنتظر قليلاً ريثما يفرغ من مجادلة بعض المتحلقين حوله.

-ولكن، ما كان سبب هذا التحلق؟ هل صار قيصر بائع سيديات من "ذاك النوع"؟

-لا، لم يكن هذا هو السبب، وأظن بأن مثل هذا العمل لأمر مستبعد بالنسبة إليه، رغم تقلبه في مئات الأشغال. أنت تعرفه، إنه لا يستقر على عمل لأكثر من شهر، لكنه "ما يقبل بالناقصة".

-نعم، أعرف ذلك ...

**

وهنا "أستبيحكم عذراً" (هكذا كان يلفظها قيصر نفسه عندما كان يريد أن يتفيقه) لأنقل لكم "قبساً" مما أعرفه عن هذا الرجل، وعسى أن لا تعد مفوضية الانتخابات كلامي هذا نوعاً من الدعاية الانتخابية التي تُعاقَبُ بالتغريم "وبعقوبات أشد في حالة تكرارها من قبل كياني الفقير". ولأبدأ أولاً بسبب تلك التسمية الغريبة (قيصر لوميّة أو نوميّة) إذ يُقال أن والده (أي والد قيصر) كان، برغم فقر الحال وتواضع المستوى الثقافي من الحريصين على الذهاب الى دور السينما، والمسرح إن سنحت الفرصة (وهو ما أورثه لإبنه قيصر) وإنه أعجب أشد الإعجاب بشخصية يوليوس قيصر التي كان حقي الشبلي يصول ويجول فيها، وإنه في أكثر من مرة كان يصرخ بالممثل الأمريكي (الذي لم يحفظ اسمه) كي لا يخرج من داره حتى لا يقتله المتآمرون المتربصون. وكم من مرة ارتفع صوته بالدعاء لمارلون براندو وهو يرثي قيصر المغدور ويحض على الثأر له. ويقال أيضاً بأنهم سمعوه (في نبوءة عجيبة) وهو يعلق على إحدى خطب الزعيم في أوائل الستينات: أويلي عليك كرّومي! إنته هم مثل قيصر، تاليها يغدرون بيك وإنته نايم ورجلك بالشمس! ولهذا أصر الأب المفتون على تسمية ابنه البكر في شهادة الميلاد بهذا الاسم غير الشائع في بلادنا.

هذا إذن ما "أجمعت عليه الأمة" من سبب تسميته بقيصر، أما لقب "تومية" فقد اختلف الفقهاء وأصحاب الرأي حول أصله: فمنهم من يشير الى أنه كان في صغره فتى ضئيلاً أصفر الوجه صفاراً شديداً يضرب الى الزرقة، ولهذا لقّبه زملاؤه في الابتدائية بهذا اللقب. لكن هذه على الأغلب "رواية ضعيفة" إذا ما قورنت بوجهه المنتفخ الأحمر الحليق وقامته المربوعة التي عرفناه بهما منذ مطلع شبابه (وشبابنا)، رغم أنه من الجائز، أقول من الجائز، أن يكون قد تعرض في فترةٍ ما من طفولته الى التهاب ما من التهابات الكبد الشائعة في بلادنا العامرة مما يصبغ الوجه بذلك اللون لفترة قد تطول أو تقصر/ لكن هذا الاعتقاد ضعيف هو الآخر لأن من المفترض، لو كان هذا هو السبب، أن يُلقّب نصف أبناء وبنات شعبنا العظيم بهذا اللقب!

وما دمنا قد تورطنا في الثرثرة حول هذا الموضوع فلا بأس من إيراد اثنتين من الروايات الأخرى: إحداهما تحيل اللقب الى أمور خادشة للحياء لا مجال للتفصيل فيها، أما الثانية (وهي الأرجح في ظني) فتعود الى طبيعة "المزة" التي اعتاد السيد قيصر على أن تكون حاضرة مع قنينة "الزحلاوي" التي لم يخن عهده معها مذ بلغ الحلم، وأخلصت له هي الأخرى في الحلو والمر، ورافقته رفقة صديق مؤتمن أمين فلم تخذله يوماً، لكنها لم ترخِ له الحبل مرة حتى يبلغ مبلغ السكر العلني الفاضح الذي يُذهِب الوقار ويُضحك الكبار والصغار!.. أقول إن النومي (أو الليمون باللسان

العربي الفصيح) كان مزته المفضلة، وكانت له طريقته الخاصة في تناوله، إذ يهصر الليمونة هصراً بأصابعه القوية الغليظة حتى تلين وهي في قشرتها ثم يثقب فيها ثقباً صغيراً ويروح "يمصمص" منها بين الرشفة والرشفة. وهذا هو، والله أعلم، سبب لقبه الغريب الذي لا يُعرف إلا به.

وقيصر نوميّه، يا أصدقائي، عراقي بامتياز، فيه طيبة العراقيين، وشهامة العراقيين، ونزوات العراقيين، وحزنهم، وغرابة أطوارهم.. وجنونهم وولعهم بالسياسة، فهو (مثل كل عراقي) سياسي بالفطرة.. سياسي من بطن أمه. وهو(رغم فقره المزمن الذي اضطره الى التنقل بين مهن ومدن وقرى لا تخطر على بال) كريم النفس.. "خواره" .. "أخو خيته". وليتك رأيته في الملمات، أو حين يحتاج أحدٌ الى مساعدته: رجلٌ ضعيف يتعرض للاعتداء أو امرأة تستنجد به وتنتخيه!

أما الحكاية التي تروى عما حدث في أيام الفرهود التي أعقبت "التحريلال" وتنسب الى هذا أو ذاك (وقد يحلف لك مئة شخص بأنهم شاهدوها بأمّ أعينهم) فلم يكن بطلها الحقيقي غير "قيصر نومية" لا غيره:

كانت مجموعة من حثالة القوم قد حطمت أبواب عدد من دكاكين بيع الخمور وراحت تدخل اليها ثم تخرج فرحة مستبشرة مثقلة بما حصلت عليه من غنائم القناني والصناديق، فيما اكتفى البعض منهم بأن شربوا وشربوا كالمفجوعين حتى بلغ منهم السكر

مبلغاً فافترشوا الواجهات وغطوا في نومٍ عميق، في الوقت الذي ارتأى البعض الآخر من السكارى أن "يحتفل على طريقته الخاصة" حسب العبارة المشهورة لبطل التحرير القومي، فصار يتسابق في تحطيم أكبر عدد من القناني بضربها بالجدران أو بتصويبها على الجدارية القريبة التي تحمل صورة البطل "أعلاه"، تلك الجدارية التي جُمعت تكاليف إقامتها من كيس أصحاب تلك الدكاكين المساكين، ولم يمض على إزاحة الستار عنها "بحضور الرفيق أمين سر الفرع وجماهير المنطقة" إلا بضعة أشهر. المهم إن قيصر قد توقف على الرصيف المقابل وصار يراقب المشهد بحزنٍ واستنكار شديدين، ثم التفت الى صاحبه:

–داينّي ألف دينار.

–ليش؟

–مو شغلك!

وأخذ النقود من صاحبه وتوجه الى صبي كان قد نصب على عرض الرصيف حوض استحمام "بانيو" لا أعرف من أين جاء به وملأه بالثلج وقناني وعلب المشروبات من كل صنفٍ ولون:

–هاك بابا، ناوشني ربع عرق، هذوله الملاعين الوالدين حرقوا دمي.

–مجنون أنت؟ (صاح رفيقه الذي معه) الناس تدخل وتخرج الى المحلات وتحمل صناديق الويسكي والشمبانيا بالمجان وأنت تستدين ألف دينار لتشتري ربع عرق مغشوش.

-إخرس أنت! أتريدني أن أشربَ بالحرام؟ أتريدني أن أسرق مع هؤلاء "الطايحين الحظ"؟ يعني ما يكفي عرق.. والنوبة مسروق!؟

-طيّب رقّه عن نفسك. بحبحها شويّه. إشتريلك ويسكي، بيرة، فودكا .. إنهم يبيعونها برخص التراب.

-خلّي الويسكي والبيرة للمخانيث من أمثالك! (أجاب قيصر مداعباً) أنا لا أشرب إلا حليب مباع، وبشرط أن يكون صناعة عراقية ميّه بالميّه!

**

ونعود الى حديث صاحبي:

ليتك رأيته وهو يعتلي "الصبّه" ويناقش هذا ويجادل ذاك وكأنه يوليوس قيصر الحقيقي.

وفيم كان النقاش والجدال؟

تخيّل.. لقد كان قيصر يتحدث عمّا سيفعله لو صار رئيساً للجمهورية!

يا الله. رئيس جمهورية مرة واحدة؟! ما أبعد خيال هذا الرجل. ولكن، لماذا نلومه؟ ألسنا جميعاً مثله؟ ألم تتخيل نفسك يوماً رئيساً للجمهورية؟

مئات المرات! ولكن قيصر كان مندمجاً في الدور. كان يتحدث وكأن بينه وبين أبواب القصر الجمهوري بضعة أشبار! وكان، ببساطة، يعرض على الجمهور برنامجه الانتخابي. أتدري؟ لقد

كان يتحدث الى الجميع في وقت واحد بطريقة تشعرك بأنه يعرفهم واحدا واحدا وبأنهم هم أيضاً يعرفونه حـق المعرفـة. أن هـذا القيصر يمتلك حقاً تلك الـ (ماذا تسمونها) .. "الكاريزمه" ... إي والله الكاريزمه .. فقد أحسست بانجذابٍ نحوه وشعرت بالغيرة من اقتراب الآخرين منه، وكأنه حقاً صار رئيساً يمكـن للمـرء أن يتباهى بعلاقاته معه. وفي لحظة ما تخيلتُ نفسي وأنا أتحدث مـع عدد من طلاب الوساطات: الرئيس نوميّة؟ إي طبعاً أعرفه، إنـه صديق صباي.. نعم طبعاً طبعاً أستطيع مقابلته فـي أي وقـت! اعتبروا طلباتكم متحققة، الرئيس نوميّه لن يتأخر في رد طلبـي! هئ هئ هئ!

ولماذا تضحك؟ ألا تتذكر أيام كنا ندعو الله أن يخلصنا من ذاك الديناصور ويرسل لنا أي حاكم سواه، حتى لو كان قيصر نوميّه.

لا لم أنس ذلك، ولكن كان هذا أيام زمان، أيام كـان التمنّـي، مجرد التمنّي يكلفك حياتك وحياة أقربائك الى الدرجة الرابعة. هل تتذكر "سلمان المضمد" الذي حكم بالإعدام لأنه رأى نفسه في الحلم رئيساً وقصّ رؤياه (لقلّة عقله) على زوجته الثرثارة. أمّا اليوم –ما شاء الله– فنستطيع أن نصدّر الى دول العـالم آلاف الـسياسيين المحترفين الذين يطالبون بالزعامة والمجد مثلما تصدّر البرازيـل لاعبي كرة القدم!

دعك من البرازيل وأخبرني عن البرنامج الانتخابي لقيصر.

لا أتذكر كل التفاصيل، لقد تحدث طويلاً وكان يخلط كعادته الجد بالهزل. ولكنه، في الوقت الذي وصلتُ، كان يصب جامّ غضبه على العرفاء ونواب الضباط! كان يقول وهو يستذكر آلامه خلال خدمته العسكرية الطويلة: لو صرت رئيس إلا أحبس كل رئيس عرفاء ونايب ضابط خصوصاً كل من اسمه ...!! ومو بس هاي، راح أعزّل كراج النهضة وكراج العلاوي وكراج ساحة سعد وكل الكراجات الكشرة اللي كنا نركض بيها وره السيارات حتى نروح للجبهة نموت!

—وكيف سيصل الناس الى الأماكن التي يقصدونها؟

هذا بالضبط ما سأله أحدهم. لكن قيصر أسرع بالجواب: بالقطارات، بالطيارات، إلا أترس البلد مطارات. ليش إحنه فلوسنه قليلة، ها بويه زاير وين رايح، للعمارة؟ اتفضل إركب بوينغ ٧٤٧ من مطار الشيخ عمر الدولي. ها حجية وين رايحه. لـ"هيت".. اتفضلي اركبي بوينغ ٧٤٧ من مطار العلاوي عنترناشنال. ها كاكه وين رايح .... ويمكن أوزع على الناس سيارات .. ليش لا؟ شعارنا لكل مواطن سيارة آخر موديل (وعندها ارتفعت الصيحات: عاش قيصر نوميه.. عاش.. عاش)

لو هيجي الرئيس يدلل شعبه لو ما لازم! وماذا قال أيضاً؟

الكثير. لكنه، على سبيل المثال، تحدث عن خطة أمنية ستقضي على الإرهاب في أسبوعين!

خطة أمنية أخرى؟! ألم نشبع خطط أمنية؟

نعم، لكن قيصر يقول أن خطته مضمونة ميّه بالميّه ولن تحدث فيها "لا خروقات ولا فتوقات".

وهل كشف المهيب الركن تفاصيل خطته؟

البعض منها. قال مثلاً إنه عندما يلقي القبض على أي إرهابي أو مجرم أو متستر عليهم سيحاكمه خلال ٢٤ ساعة ثم يعلقه في إحدى الساحات العامة حتى يتعفن!

أف! يا له من رئيس متوحش!

كذلك قال إنه "يتفق مع المحللين السياسيين" في أن سبب كل البلاوي هم ثلاثة: الطائفيون والصداميون والإرهابيون ولكل منهم الحل الذي فكر فيه. لكن أطرف ما قاله هو مشروعه بإجراء استفتاء لكل من يحب صدام ويحنّ الى أيامه: استفتاء ديمقراطي وحر "بعَرضي"، كل واحد يحب صكر البيده يسجل اسمه وعنوانه عند المختار، وأجمعهم كلهم في قطعة من الصحراء يختاروها هم، يعني أسويلهم إقليم "صدامستان" وأحفر حوله خندق مليان ألغام وأنصّب عليهم واحد نسخة من "الرئيس الراحل" على قولة قناة شرق الجزيرة البعثية، وامنع عنهم الستالايت والموبايل وافتح لهم قناة وحدة يومية تبث ١٤ ساعة ونصف باليوم: عشر ساعات خطابات القائد و٤ ساعات أغنيات عن القائد ونص ساعة الباقية أفلام كارتون عدنان ولينه! وطبعاً أطلّع عيونهم حتى يحصلون جوازات السفر واخلي راتب خيّرهم دولارين بالشهر (مثل قبل) وأخليهم يحلمون بقواطي الببسي واللحم والموز وجبن المثلثات،

وألبِّسهم زيتوني واخلي كل واحد يخدم عشرين سنة بالجيش و٣٠ سنة جيش شعبي وأوفر لهم أوراق وأقلام حتى يشبعون من كتابة التقارير، وإذا يريدون حروب هم بسيطة: أسويهم فريقين وأخلي واحد يقتل الأخر، وأملي الإقليم انضباطية وأمن ومخابرات وكل جم يوم أسوي حفلة قطع آذان وقطع رؤوس وألسنة.. وأخليهم يبوسون إيد القائد وكتفه ويوقعون على بسطاله.. وهكذا هُمّه يرتاحون وإحنه نرتاح!

وبالنسبة للإرهابيين؟

قال إن أمرهم سيكون سهلاً بعد حل المشكلة الأولى. فتحدث مجدداً عن تعليقهم في الشوارع هم وكل من يتستر عليهم وخصوصاً من السياسيين أو البرلمانيين، وقال إنه سيبني سياجا مكهربا حول الحدود حتى لا يتسلل منها الإرهابيون الأجانب. وحين سأله أحد الحاضرين: "وكيف سيدخل الناس ويخرجون من والى البلد؟ هل تريد أن تخنقنا يا قيصر؟" أجابه "ولك دماغ سز مو قلنا بالطيارات!"

وماذا عن الطائفيين؟

لم يزد على القول "هذوله القشامر شغلتهم سهلة!" ثم تحدث عن الفساد والسرقة فقال إنه سيستحدث وزارة لشؤون الكذابين والمرتشين! نعم هذا ما قاله بالنص.

وما وظيفتها، أعني هذه الوزارة الغريبة؟

يقول أنها ستتولى تسجيل كل أحاديث ووعود المسؤولين والوزراء والمدراء وأعضاء البرلمان والمرشحين، وإذا ثبت أن أحداً من هؤلاء يكذب على الناس أو يبيع عليهم الكلام والوعود الكاذبة أو يمارس الفساد أو الرشوة "أزينه صفر وأركبه على زمال أجرب وأفر بيه الشوارع وأطلّع منه القضى والمضى وأشهره بالتلفزيون وبعدين أشده على جذع نخلة وبالصوندات وين ما يوجعك لمّا يصير عجين!" وهنا تعالى أحد الأصوات المحتجة:

هذا شلون كلام قيصر، شنو ماكو محاكم؟ ماكو قانون؟ ماكو حقوق إنسان؟

فأجابه بحدّة:

ولك أغبر همه هذوله مال قانون مال حقوق إنسان، ولك هذوله يا قانون يقدر عليهم؟ أشو نص اللي يخلّون القوانين ويطبقوها نهبيبه .. حاميها حراميه.. (ملاحظة الى السادة المسؤولين: هذا كلام قيصر وليس كلامي والله العظيم، وناقل الكفر ليس بكافر)

وحقوق الإنسان؟

يا إنسان: الشريف لو الـ...

لا، طبعاً الشريف.

وهذا منين عنده حقوق؟ هذا بس يكرّبون عليه ويثرمون براسه بصل، من صارت الدنيه ليهسّه الرمح بـ... النكضان. ومن ينلزم إرهابي لو حرامي جبير يتذكرون حقوق الإنسان!

لم يقل غير الصدق.

ثم سأله أحدهم "صار لك ساعة تحجي وما افتهمنا منّك غيـر أحبس هذا وأضرب ذاك! ما عندك شي للترفيه عن الشعب؟.. مو هذوله خطيّه عمرهم خلص بالقهر والحسرة والونّه!" فأجابه على الفور: "طبعاً، أكيد. أول شي أسويّه (لاحظ أنه مثل كل جماعتنا يعشق عبارة أول شي أسويّه) أوزّع العرق (مجانا) مع الحـصة التموينية (وحين ارتفعت بعض أصوات الاستنكار صاح بأحدهم) أسكت ولك أبو المستكي هسه صرت تستحرم؟! والله لـو صـار العرق بلاش إنته أول واحد تاخذه، لو ما تشربه تبيعه، مثل ما قال المثل: عرق بلاش قاضي يشرب! (وارتفعت الضحكات من جديد) وبعدين افتح ١٠ نوادي بكل قضاء. وأفتح سينمات، البلد المابيـه سينمات ما يسوه فلس.. وملاعب.. ومسابح.. ومكتبات.. وحدايق .. وكله بلاش .. كله بلاش.. خلّي الناس ترتاح".

–والشباب المثلنا؟ (سأله أحد الفتيان، صاحب بسطية قريبـة، كان يتابع الحديث من مكانه)

–والله لأزوّجكم كلكم!

–هذه قالها عبد السلام عارف قبل ٤٥ سنة! (قال أحد الكهول)

– صحيح، ولكنني غير شكل.. إنتم تعرفوني.. آني قول وفعل!

– والنعم من قيصر! وماذا بعد؟

– لقد تحدث في كل شيء تقريباً: تحدث عن التربية والتعلـيم والثقافة والخدمات والصحة.. والحريات الدينية (قال إن شـعاره هو: صير خوش آدمي ومعليك بغيرك) وتحدث حتى في العلاقات

الدولية! وكان حديثه، والله، ولـولا الـشتائم والعبـارات النابيـة والسخريات التي تتخلله، مقنعاً، بل وأفضل من الأحاديـث التـي نسمعها من الفضائيات.

- ما قولك إذن؟ هل ننتخب قيصر نوميّه؟

- وكيف هذا وهو -ويا للأسف- لا يملـك مـالاً، أو شـهادةً جامعيةً، أو حزباً، أو جريدةً، أو فضائية.. وكل ما يملكه هو قلبه الطيب .. وأحلامه البسيطة.. أحلام الفقراء!

١٨-٢-٢٠١٠

ضحكٌ كالبكاء

عفوا يا حذائي القديم.. لقد آذيتك كثيراً!

د. ماجد الحيدر

-بابا .. توندرتك مشگوگه!

فاجأتني صغيرتي "گنوشه" ذات السنوات الثلاث، ليلة أمس، فور عودتي إلى المنزل.

نظرت إلى الأسفل: نعم كان كعب الحذاء يوشك على الانفصال. لا بد أن ذلك حدث عندما عثرت بالسرير الحديدي الذي تركه حسين الحداد على الرصيف المحاذي لدكانه على أمل إكمال تصليحه صباح الغد، دون أن يحسب حساب رجلٍ ساهمٍ مثلي يعود إلى بيته في الليل (والكهرباء مقطوعة طبعاً)

الحق الحق أقول لكم: لم أنزعج كثيراً؛ اكتفيت بإطلاق شتيمة صغيرة على صاحبنا الحداد وقررت مع نفسي: باچر أطيّح حظه!

نعم، فالأمر لا يستدعي الغضب كما كان يحدث من قبل حين كانت حوادث مثل هذه تصيبني بغم وتوتر عصبي وصداع ناتج عن إعادة تنظيم ميزانية الأسرة الكريمة الذي كان يبلغ -بعد مكرمة القائد حفظه الله ورعاه- سبعتالاف وستمية وخمسين دينار: منها أربعتالاف واربعمية وخمسين دينار من راتبي الشهري

باعتباري "بكلوريوس إدارة واقتصاد" وملاحظ فني محترم قضى عشرين عاماً في خدمة الدولة العراقية المحفوظة من مؤامرات الأعداء برعاية الباري وعزم القائد، والباقي من راتب زوجتي التي لم تحظ سوى بدبلوم معهد فني وأربعطعش سنة خدمة!

وربما كان هذا "الفارق الطبقي" الذي تضخم واتسعت هوته بعد أن صرنا نحن الموظفين "تحـــچي بمئات الألوف" هو بالذات ما يثير غيرة زوجتي وحفيظتها ويدفعها إلى تقريعي في الصغيرة والكبيرة:

-كلها منك. أكو واحد يرجع للبيت بنصاص الليالي؟!

-عن أي نصاص ليالي تتكلمين يا حُبي (لاحظ التملق) الساعة لم تتجاوز الثامنة وأنتِ تعرفين بأنني مع أصدقائي في المقهى والموبايل في جيبي ويمكنك مكالمتي متى أردت (لاحظ أيضا طريقة نطقي لكلمة موبايل بالـــ P وليس بالـــ B وذلك لأنه ما زال ضيفاً حديثاً أحب تدليله)

- ولو! ألا تعرف أن الدنيا "مو أمان"؟! تفجيرات وتفخيخات واختطاف وصخام!؟

-يا "معودة" العمر واحد والرب واحد. تتذكرين كيف كنت تحذريني من الجلوس في المقهى خوفا من فلتة لسان يستفيد منها أحد "الخوش ولِد" ليصبح بها "عضو فلكة" بعد أن يرسلني إلى حيث أجدادي المراحيم. وانظري الآن ماذا حدث: ها أنا

الآن أمامك بطولي الحلو وقد ولى "الأشاوس" إلى مزبلة التاريخ. وسوف تولي كل هذه الأوضاع ويعود الأمان وأمسك بيدك ونروح "تفتر" بشارع النهر وأعشيك أطيب كباب بعرصات الهندية!

–هكذا أنت. لا آخذ منك غير الكلام المعسول. كيف ستذهب غداً الى دوامك؟ تلبس قبقاب؟

لكن ابنتي الحبيبة، بنت أبيها، أسرعت بحل المشكلة:

–بابا، بابا.. مو عندك توندَره تَديمه دوّه التَريوله؟

(كان هذا نص حديث سيادتها باللغة الكَتوشية وترجمته: بابا، بابا، مو عندك قندره قديمة جوّه القَريولة).. فديتُها، هكذا هي، ذكية مثلي!

وانبطحتُ أرضاً لأسحب العلبة الكرتونية المغبرّة التي ترقد منذ أوائل أيام "التحريلال" تحت السرير الذي حولناه الى مخزن صغير. وأمسكت بالحذاء العتيق الذي حال لونه وتآكلت جوانبه، ونفختُ عليه ونظرت اليه بحنانٍ فخِلتُ –واللهِ– إنه يبادلني نظرة اشتياق وعتاب! فطبطبتُ عليه "مصالِحاً":

–لا تزعل يا حذائي الأثير. أنا لم أتركك بطراً أو جفوةً. أنا أدري أنك رافقتني في السراء والضراء طوال سنوات لا أستطيع عدها، وإنك تحملت نزواتي وتخبطي في المطر والطين ومشاويري الماراثونية في صبرٍ وجَلَدٍ وطول بال. هل

تذكر مقدار اعتزازي بك وكيف نهرتُ أحد الزملاء حين أراد الإساءة اليك وتساءل وهو يرطنُ بانكليزيته الشوهاء "ماهذا الحذاء الـــ historical؟ ألم تزهق منه؟ أتريد أن تحتفظ به for ever ؟"

لا تأخذ على خاطرك مني أرجوك. أنا لم أرمك في الشارع أو الحاوية مثل أي ناكر للجميل. لقد أحلتك فقط على التقاعد. ألا ترى كيف صبغتك قبل الوداع وحشوتك بأوراق الصحف ووضعتك في علبة حذاء مستورد أنيقة وأرقدتك الى جانب أشياء أخرى عزيزة أحيلت هي الأخرى الى التقاعد مع أول راتب يليق بالبشر نستلمه من محاسب الدائرة منذ ما لا أدري من الأعوام؟

وحملته تحت بقعة ضوء جيدة واقتعدت الأرض كي أعيد صبغه تمهيداً لإعادته الى العملية السياسية (أوهوووه ألعن أبو نشرات الأخبار! أقصد بالطبع إعادته للخدمة). أخرجت أوراق الجرائد المحشورة وشرعتُ بالعمل في 'حماس' فأنا من الذين يستمتعون بصبغ أحذيتهم بأنفسهم، غير أن التفاتةً غير مقصودة (يعني.. مو كلش مقصودة) مني الى الأوراق المجعدة أغرتني – كعادتي– على أن أنشر واحدة منها لأنظر فيها فإذا بي –وياللهول– أقع عيناً بعين على المحيّا الجليل للقائد الرمز وهو يضحك ضحكته العريضة المفعمة بالحنان والبراءة فاقشعر بدني

خوفاً وندمتُ (بأثرٍ رجعي) على ما بدر مني من طيش وقلةِ تدبير حين غامرتُ بحياتي وحياة أسرتي لمّا وضعت مثل هذه الصورة في مثل هذا المكان! ولكنني برأتُ شخصي المتواضع من هذه الاتهامات عندما أعدت تذكير نفسي بأنني لم أقدم على هذا الفعل الإجرامي الشنيع ولم أحشر تلك الصحف (القديمة حتى في وقتها) إلا بعد زوال زمن الخوف منه ومن أمثاله بغياب "العِلّة" المسببة كما يقول أهل المنطق!

وإذ اطمأن قلبي رحت أفتح الأوراق المكوّرة واحدةً بعد الأخرى: هنا برقية تأييد من المؤتمر القومي العالمي لتجار الواشرات المنعقد في بغداد النصر والسلام، وهنا برقية أخرى من فرع نقابة المحامين في مدينة "شكوماكو" في ولاية "خيال آباد"، وفي هذه الصفحة قصيدة من ٧٧ بيتاً لشاعر أم المعارك بعنوان "أنت الذي مرمرَ العُذّال في القمرِ" وهناك دراسة للكاتب المعروف الدكتور " " بعنوان "الآفاق الحلزونية والأبعاد الإنبعاجية في وصايا القائد الضرورة" وثمة مقالات عن دروس أم المعارك واليوم الزحف العظيم ويوم القدس وفنون هز الشوارب وأخبار عن إزاحة الستار عن الجدارية الجديدة للقائد وافتتاح كراج القائد وغرفة الضماد الجديدة في مستشفى القائد وتجمّعٍ لرؤساء العشائر تلبية لنداء القائد ومهرجان أغنيات القائد الخ. لكن أطرف الصفحات كانت تلك المحتوية على عدد كبير من الإعلانات

التجارية–الوطنية التي تضم صورة مكررة للقائد مع تهنئة بقرب ميلاد سيادته واسم صاحب المحل أو المشروع المعلن–المهنئ!

وما أطولها عليكم..

في اليوم التالي أبلى حذائي الأثير بلاءً حسناً، ولم أعد الى البيت بعد الظهر إلا وفي يدي زوج جديد من الأحذية، أعني أحذية هذه الأيام التي لا تدري متى تخذلك، ولهذا قررت أن أواصل الاحتفاظ بحذائي القديم احتراماً لمشاعره أوّلاً وتحسباً لكل طارئ ثانياً. ولأن من الطبيعي أن أحشوه من جديد بما يتيسر من الورق فقد سحبتُ من "فوگ الثلاجة" وهو مكاني المفضل لرمي الصحف وتكديسها بين كل حملة تطهيرية وأخرى تشنها أم البيت في محاولاتها الفاشلة لتعليمي النظام والترتيب. أقول إني قد سحبت واحدة من تلك الجرائد وبدأت بتكوير الصفحة الأولى فوقع ناظري على وجهٍ واسمٍ بدوا مألوفين لي.. مهلاً.. أليس هو نفسه الكاتب والمحلل الألمعي الذي رأيته أمس في الجريدة القديمة في مقالٍ مطوّل بعنوان "المنظور الستراتيجي في وصية القائد: لا تجعل عدوك يطمع في صفحك"؟ بَلا، إنه هو والله! ولكن ما هذا الذي يكتبه الآن؟ آها، والنعم والله. إنها مقالة بنفس الطول تقريباً عن المنظور الستراتيجي لعملية البناء الفوقي لمرحلة ما بعد سقوط الدكتاتورية!

–لِف عيني لف!

عندما هممت بـــ" تعقيج" الصفحة الثانية وقع نظري مرة أخرى (لا أدري لماذا "يقع" نظري كثيراً؟!) على صورة صغيرة للفنان الكبير وتحتها خبر عن بطولته وإخراجه لمسرحية تتحدث عن حياة ونضال رجل الدين الشهيد "   " الذي "أقدم نظام الطاغية المقبور على إعدامه"

يا إلهي! أليس هذا هو نفس الفنان العظيم الذي حول الرواية البائسة "زبيبة والملك" الى مسرحية–مسخرة قال عنها إنها ستكون من "أعظم العلامات الفارقة في تاريخ مسرحنا المعاصر لكونها تجسد عملاً ملحمياً يفوق في أهميته وعمقه ملحمة كلكامش؟" إي والله هوّ بعينه!

–لف عيني لف!

يا الله. الصفحة الثالثة! صورة وخبر عن استقبال معالي السيد "   " وفداً من رؤساء العشائر الذين جددوا عهد الولاء، ورددوا بعض "الأهازيج الوطنية" ثم ضربوا اللحم والثريد واستلموا المعلوم! والمرء لا يحتاج بالطبع الى عدسة مكبرة للتأكد من الوجوه.. وما أحسنها من وجوه!

الصفحة الرابعة.. براءة! لا شيء غير بضع قصائد لن تستطيع (ولو أوتيتَ حكمة لقمان) أن تفكّ طلاسمها ومقالة نقدية كتبها أديب في مجاملة زميل له! أوكي، ما يخالف، مو مشكلة!

أوشكت الفردتان على الامتلاء.. نصف صفحة أخرى لكل منهما وتأخذان شكلهما الجميل.. لكن صوتاً غريباً اختلط مع صوت تمزيق الصفحة الأخيرة.. هل ستصدقون.. لقد كان حذائي يبكي! صدقوني رجاءً. لقد سمعته بأذني التي سيأكلها الدود!

انحنيت عليه مشفقاً.. ولن أقول لكم ماذا فعلت لكي أواسيه حتى لا تتهموني بالجنون!

شكراً يا أصدقاء.. لقد فهمتموها وهي طايرة.. شكراً جزيلاً!

وعفواً يا حذائي الأصيل.. قد آذيتك مرتين.. عفواً عنيفاً!

المحتويات



المؤلف.. في سطور

د. ماجد الحيدر قاص وشاعر ومترجم

ولد ببغداد ١٩٦٠ وتخرج من كلية طب الأسنان فيها عام ١٩٨٤

عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب

من أعماله المنشورة:

- النهار الأخير (مجموعة شعرية) - بغداد ٢٠٠٠
- في ظل ليمونة (مجموعة قصصية) - بغداد ٢٠٠١
- ماذا يأكل الأغنياء (مجموعة قصصية) - بغداد ٢٠٠٢
- مزامير ركوم الدهماء وقصائد أخرى (مجموعة شعرية) - بغداد ٢٠٠٢
- نشيد الحرية وقصائد أخرى لشيللي-دار الشؤون الثقافية بغداد ٢٠٠٤
- الإيدز بين المناعة والفيروس-دار الشؤون الثقافية بغداد ٢٠٠٤
- عبور الحاجز (قصائد من الشعر العالمي) - دار المأمون بغداد ٢٠٠٧
- ناجون بالمصادفة (مجموعة شعرية) - دار سبيريز-دهوك ٢٠٠٩



مطبعة جامعة دهوك – ٢٠١٠